
"الرواية الحاصلة على جائزة الاتحاد الأوروبي للآداب 2019"
فريق
متميزون
E-BOOK
أعيش مع شبح
لورا فرويدنتالر
ترجمة: د. رضوى إمام
العربي للنشر والتوزيع
روايات مترجمة

مكتبة فريق (متميزون)

لتحويل الكتب النادرة الى صيغة نصية

قام بالتحويل لهذا الكتاب:



كلمه مهمة:

هذا العمل هو بمثابة خدمة حصرية للمكفوفين، من منطلق حرص الجميع على تقديم ما أمكن من دعم للإنسان الكفيف، الذي يحتاج أكثر من غيره للدعم الاجتماعي والعلمي والتقني بحيث تعينه خدماتنا هذه على ممارسة حياته باستقلالية وراحة، وتعزز لديه الثقة بالنفس والاندماج بالمجتمع بشكل طبيعي.
وبسبب شح الخدمات المتوفرة للمكفوفين حرصنا على توفير خدمات نوعية تساعد الكفيف في المجالات التعليمية العلمية والثقافية وذلك بتسخير ما يتوفر من تقنيات خاصة لتحويل الكتب الي نصوص تكون بين أيديهم بشكل مجاني، ويمكن لبرامج القراءة الخاصة بالمكفوفين قراءتها.

مع تحيات:

فريق -متميزون-

انضم الى الجروب

انضم الى القناة

أعيش مع شبح

الرواية الحاصلة على جائزة الاتحاد الأوربي للآداب ٢٠١٩..

رواية مترجمة..

الكاتبة: لورا فرويدنتالر.
ترجمة: د. رضوى إمام

1

سَمِعَتْ "أنَّا" باب المنزل وهو ينفتح، ثم يُغلَق بِحَذَر. تَحَرَّك مقبض الباب إلى أعلى. لا بد أن "توماس" قد انحنى كي يخلع حذاءه؛ عرفت هذا من الصوت الذي صدر عن قماش المعطف وهو ينحني، ثم توجَّه بعد ذلك إلى المطبخ. أصدرت خطواته على أرضية الرِّدهة التي تقع بين مدخل المنزل والمطبخ صوتًا صاخبًا، وكأن شيئًا ما قد تكسَّر. بعدها، سمعت "أنَّا" صوت باب مكتب "توماس"، وكانت تعلم أنه اتَّكأ عليه من الداخل كي يتأكَّد من إحكام غلقه.

وقفت "أنَّا" في حجرة المعيشة ثابتةً مثل التماثيل. أعطت ظهرها للمساحة بين المطبخ وحجرة المكتب، حيث تحرَّك "توماس". وقفت في مواجهة الحائط الزجاجي. رجعت خطوة إلى الوراء، لترى صورتها المُنعكسة على الزجاج. وقع بصرها على تلك التجعيدة التي تقع بين حاجبيها، فلامستها بأصابعها، ولكنها سرعان ما مسحت بيديها على جبينها، وعدَّلت من خصلتها الأماميَّة، وأطالت جُزءًا من سوالفها على الناحيتين.

بعدها، خرجت لتتمشَّى قليلًا. شعرت بالهواء البارد على ساقيها، فغمرتها ذكريات الصِّبا؛ عندما تركت باريس وأتت إلى فيينا في منحة دراسية. تذكَّرت كيف كانت تعود إلى غُرفتها كل مساء، بعد قضاء اليوم في التدريب بمعهد الموسيقى. أحبَّت الظلام، وكانت تتعمَّد أن تُطيل من طريق عودتها، كي تتنزه في شوارع المدينة التي لم تألفها. وعندما كانت تجد "كافيه" يروق لها، تجلس بداخله لتناول القهوة، والتي لم تمنعها من الخلود إلى النوم.

وجدت السوبرماركت على ناصية الشارع مفتوحًا، ففكَّرت في "توماس"؛ لعلَّه يشتهي بعض الطعام. وبالفعل، عندما عادت إلى المنزل، وجدته في المطبخ. طلب منها إعداد وجبة خفيفة. عرضت عليه بعض المكرونة بصوص "البيستو" الذي أعدَّته صديقتها بنفسها. بعد أن قامت بتصفية المكرونة من المياه، طلبت منه أن يتأكَّد من أن جبنة "البارميزان" لم تفسد بعد. حزنت عندما وجدت عفنًا فطريًّا على حافتها، ولكن "توماس" ألقى نظرة على الجبنة، ولم يفهم لماذا اعتبرتها فاسدة.

قالت "أنَّا":

- الجو في الخارج بديع، ولا يحتاج إلى ملابس ثقيلة.

أجابها "توماس":

- كيف تقولين هذا؟ الرياح شديدة البرودة، لدرجة تتجمَّد معها الأُذن.

مالت برأسها، ورفعت كتفها اليُمنى حتى لامست أُذنها، وقالت:

- أنت مُخطئ.

ثم أنزلت كتفها إلى موضعها. فالربيع آتٍ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

2

قالت "أنَّا":
- اتَّصل السيد "سين".
مسح "توماس" بيده على فمه وذقنه، ثم أبدى قلقه من وجود مشكلة ما. السيد "سين" يعتني ببيتهما المُطِّل على البحيرة، فهو يحتفظ بنسخة من المفتاح تحسُّبًا لأي طوارئ. شرحت "أنَّا" كيف اشتدَّت الأمطار في الأسابيع الماضية، وتسلَّلت المياه إلى داخل القبو. حاول السيد "سين" أن يُجفِّف المياه، ولكن لا بد أن يذهب أحدهما إلى هناك. أخبرته أن لديها ساعتي تدريس فقط كل يوم أربعاء، لذا سيسهل عليها ترحيل موعد محاضرات ذلك اليوم إلى يوم آخر، كي يتسنَّى لها الذهاب في الصباح الباكر والعودة مساءً. أخبرها "توماس" عن صعوبة مُرافقتها، وأبدت هي تفهُّمها لذلك، لكنها لا تُحبِّذ التعامل مع العُمَّال، خاصَّةً في منطقة البحيرة، حيث يتحدَّثون بلكنة ثقيلة.
قال "توماس":
- ولكنني أشعر وكأنهم يُقدِّرونكِ أكثر مِنِّي؛ فهم يعتبرونني أحد أغنياء المدينة المُتعجرفين.
أجابته مازحة:
- ولكنك حقًّا كذلك.
فداعبها "توماس" مُعبِّرًا عن سروره مما قالته. ضحكت "أنَّا"، فهي تتفهَّم وجهة نظر هؤلاء العُمَّال.
اتَّجهت "أنَّا" إلى بيت البحيرة يوم الأربعاء، وعندما بلغت منتصف الطريق، بدأ هطول الأمطار. لم يذهبا إلى ذلك البيت طيلة فصل الشتاء. فكَّرت أنه حتى ولو أمضيا إجازة نهاية الأسبوع هناك بضع مرَّات، فلم يكن ذلك ليغير من آثار تساقط الأمطار وتسريب المياه إلى القبو.
عندما وصلت وجدت السيد "سين" في انتظارها أمام البيت برفقة موظف شركة شفط المياه. كان باب البيت مفتوحًا. قال كلاهما إنه لم يسبق من قبل أن تساقطت الأمطار وضربت العواصف بمثل هذه القوة. وبعد شفط المياه، تم تركيب بعض الأجهزة لسحب الرطوبة من الجدران. أكد السيد "سين" أنه سيطمئن على كل شيء، وسيحرص على الوجود أثناء فك الأجهزة.
وقَّعت "أنَّا" بعض الأوراق، وبعد رحيل موظف الشركة، شكرت السيد "سين" مرَّة أخرى، ثم أحضرت من سيارتها زجاجة ويسكي هدية له، ولم تنسَ إحضار كيكة شوكولاتة لزوجته.
شكرها السيد "سين" قائلًا:
- ستسعد زوجتي كثيرًا بهذه الكيكة.
وبعد أن ودَّعته، أغلقت الباب، واتَّجهت إلى المطبخ، حيث وجدت كمية ضئيلة من القهوة بالكاد تكفي لإعداد فنجان لها. أخذت تتمشَّى داخل البيت حاملة الفنجان في يدها. لم تفتح ستائر حجرة النوم، وظلت واقفة بجوار باب الغُرفة. دائمًا ما تحرص على تغطية السرير بغطاءٍ كبير، إلا أن ذلك لم يمنع تساقط الحشرات الميِّتة - مثل النمل الطائر، والناموس – على السرير. صعدت بعد ذلك إلى الطابق العلوي، وخرجت إلى البلكون، لترى الغابات فوق منحدر الجبل يغطيها الضباب الذي حجب أطراف الأشجار. أرادت "أنَّا" أن تذهب إلى المسرح الصخري الكائن في قلب القرية، ولكنها سرعان ما

غسلت الفنجان، كي تستعد للعودة. فإذا سلكت طريق العودة الآن، سيتسنّى لها أن تقود السيارة في وضح النهار لمسافة معقولة. وبحكم العادة، ذهبت لتغلق سخَّان المياه، لكنها اكتشفت أنها لم تُشعله من الأساس.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

3

يقع المسرح الصخري في قلب الغابة الكثيفة، حيث اعتادت "أنَّا" و"توماس" التَّنزُّه؛ ففي إحدى المرات وجدا نفسيهما في فضاء واسع، تتشكَّل أرضه من الحصى الناعمة، ويُحيطه جدار صخري، ينقسم في أسفله إلى منصَّة كبيرة، وجزء خلفي تابع لها، مُحجَب بعض الشيء، كي يتمكن أصحاب العروض من إتمام الاستعدادات اللازمة.

جلست "أنَّا" في منتصف المسرح. أرادت أن تعرف ما إذا كانت تلك المنصَّة قد شهدت عرضًا موسيقيًّا من قبل أم لا. كانت تعلم أن تلك الصخور تساعد على زيادة قوة صدى الأصوات، فتنتشر الموسيقى في ذلك الفضاء الواسع، حتى تحوم في السماء. نبهها "توماس" إلى أنها ربما تُصاب بالتهابات المثانة؛ بسبب برودة الصخور التي تجلس عليها، فانتفضت واقفةً من مكانها على الفور. بعدها ببضعة أيام، كانا يتحدَّثان مع أحد سكان تلك القرية. أرادت "أنَّا" أن تسأله عن المسرح، فإذا بزوجها يرمقها بنظرات اللوم والعتاب، فلم تكمل سؤالها، وهو ما جعل شبه الجملة الذي تفوَّهت به يتلاشى وسط الحوار دون أن ينتبه الرجل. كانوا يقفون جميعًا بجوار مَرسى القوارب، أبعدت "أنَّا" عينيها عنهما، وجالت ببصرها في اتِّجاه الجبال، ثم فكَّت يديها من وضع التربيع، ووضعتهما في جيب المعطف. دائمًا ما تشتدُّ عليها البرودة عند تلك البحيرة، لدرجة أنها رفعت كتفيها لأعلى، وأخفت رقبتها بينهما مثل السلحفاة. حتى الآن، لا يزال المسرح الصخري يجول بخاطرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

4

تدرِّس "أنَّا" محاضراتها في الجزء الخلفي من مبنى مدرسة الموسيقى، وذلك بعد مُعاناتها لأعوام عديدة؛ بسبب التدريس في قاعة أخرى. كانت تلك القاعة تطلُّ على الشارع الرئيسي، مما جعلها تستحقُّ الحصول على قاعة بديلة؛ فلطالما كرَّرت شكواها للمديرة عامًا بعد آخر، بسبب الضوضاء التي كانت تعوق طلابها عن التركيز وسماعها جيدًا. ولكن، منذ بضعة أعوام، وحتى الآن، تطلُّ قاعة "أنَّا" على حديقة صغيرة.

تركت "أنَّا" النافذة مفتوحةً بعض الشيء، فقد وقف عصفور صغير في الحديقة، يكرر لحنًا مكونًا من خمسة موازير. قالت "أنَّا" لتلميذها الذي يجلس أمام البيانو:

- أريدك أن تُعاود عزف المقطوعة التي تدرَّبت عليها مرَّة أخرى، ولكن مع تغيير الطبقة الموسيقية، كي لا تغشّ.

أخذت أصابع الطفل تتنقل بين مفاتيح البيانو، والعصفور يغرد ألحانه الخاصة، ويُغيِّر من توالي النغمات، حتى صارت تتصاعد وكأنها سؤال استفهامي. طلبت "أنَّا" من الغلام أن يعزف المقطوعة بيده اليُسرى فقط، وأشارت إلى النوتة الموسيقية قائلةً:

- إذا فقد العازف إيقاع لحنه، فلا بد أن يعود إلى أصول العزف، هل تفهم ما أقصد؟

وضع الغلام يده على رُكبته، واستدار كي ينظر إليها. استطردت "أنَّا" موضحةً:

- من الوارد أن يفقد العازف إيقاع اللحن، إذا اعتقد أنه تمَكَّن منه.

أومأ الغلام برأسه. ثم طلبت منه "أنَّا" أن يبدأ بيده اليُسرى، فهي تعلم أنه يميل إلى استخدام يده اليُمنى. أما عن عصفور الحديقة، فكان قد انتهى من مقطوعته الموسيقية التي أخذ يتباعد رنينها شيئًا فشيئًا. انتهت المحاضرة، وسأل الغلام "أنَّا" ما إذا كانت هي أيضًا تحرص على التدريب. واندهش عندما أجابته بالإيجاب، وطلبت منه أن يواظب عليه.

قابلت "أنَّا" زميلتها من قسم الغناء في غُرفة تصوير الأوراق، حيث حدَّثتها عن أغنية إنجليزية. وعندما أخبرتها "أنَّا" بأنها لم تسمع عنها من قبل، ضحكت زميلتها ضحكة صاخبة، وهي تميل إلى الخلف. سألتها ساخرة:

- هل تعيشين معنا على كوكب الأرض؟

أجابت "أنَّا":

- أعيش على القمر.

فردَّت زميلتها:

- بل خلفه.

أخذت "أنَّا" تبرر لها كيف أنها تحرص على عزف المقطوعات الحديثة مع طلابها، فضلًا عن مقطوعات "الچاز" التي تواظب عليها بين الحين والآخر.

سألتها زميلتها:

- هل تعلمين أنني تعلَّمت غناء "الچاز"؟

أجابتها "أنَّا":

- كلا!
اعترفت زميلتها أنها لا تعرف أي شيء عن الكلاسيكيات، ولذلك فهي ترى أن قاعة البيانو الكلاسيكية التي تُلقي فيها "أنَّا" محاضراتها أشبه بالجنَّة.
ردَّت "أنَّا" قائلة:
- إن بُعدك عن الكلاسيكيات هو ما يزيد من إقبال التلاميذ عليك عامًا بعد عام.
تذكَّرت "أنَّا" عصفور الحديقة، فقد قال لها الغلام، إنه بدا وكأنه يُغرِّد تماشيًا مع ألحان البيانو. فسألت نفسها، ما إذا كان ذلك حقيقيًّا بالفعل.
دائمًا ما يشتكي أغلب الزملاء من الفجوات الموجودة في جداولهم التدريسية، ويرون في ذلك إهدارًا للوقت. جلست "أنَّا" في غُرفة المدرسين، وكان الباب مفتوحًا كالعادة. استمعت إلى صوت السكون الذي تلا صوت إغلاق أبواب القاعات، واحدًا تلو الآخر، ثم سمعت صوت تلميذ متأخر عن موعد محاضرته، يجري سريعًا في الممر، بينما تُصدر ملابسه صوتًا صاخبًا.
مع بلوغ التلاميذ سن المراهقة، يفقدون حماسهم لتعلم البيانو. فكثيرًا ما تأتي الأمهات إلى "أنَّا" ليشتكين من عدم شغف أبنائهن لمواصلة التدريبات. وفي تلك الأحوال، تنصحهن "أنَّا" بعدم إجبارهم على أي شيء، فهي لا ترى أي جدوى من ذلك إذا ما فقدوا حماسهم للموسيقى.
أعدَّت "أنَّا" فنجانًا من القهوة، وفتحت الجريدة، لتجد في الصفحة الثقافية تقريرًا عن المهرجان الذي تم افتتاحه بالأمس. وجدت زوجها في الصورة المُرفقة بالخبر بجوار أشخاص آخرين. أرادت منذ يومين أن تتمنَّى له التوفيق، ولكنهما لم يلتقيا، ففي مساء ذلك اليوم ذهبت إلى صديقتها التي دعتها على العشاء مباشرةً بعد انتهائها من المحاضرات. وفي صباح اليوم التالي، استيقظت بعدما غادر المنزل. أمَّا في المساء، فلم تلحظ عودته، ونسِيَت الموضوع.
وجدت "أنَّا" في الصورة الأمين العام، والمدير، والمستشار الثقافي، الذي كانت قد قابلته من قبل. كما رأت امرأة يصعُب تقدير عمرها ما بين الثلاثين والأربعين، ولم يكن اسمها مذكورًا في التعليق أسفل الصورة. كانت يدها مرفوعة كي تضبط شعرها، كما بدا وكأنها تقول شيئًا ما.
انتقلت "أنَّا" ببصرها إلى امرأة أخرى، شعرت أنها تعرفها. بدت في عمرها نفسه؛ شعرها قصير، وترتدي نظارة حمراء، ولكن لم يُذكر اسمها أيضًا في التعليق. أما "توماس" فكان ينظر في اتِّجاه المصوِّر. تعرف "أنَّا" تلك النظرة جيدًا، فهكذا يبدو زوجها عندما يحاول ألا يتغافل، أو يتجاهل أحدًا، تعلم أنه ظل ودودًا، ومُنتبهًا، وهادئًا طيلة الأمسية. كما تعلم أنها إذا سألته عن الاحتفال، فسيخبرها أنه لا يتذكر مضمون أي محادثة وقعت بينه وبين الآخرين.
دخل رجل شاربه كثيف غُرفة المدرسين. كان زميلها الذي يعزف على آلة "الباصون"، والذي لم يُقبل على محاضراته هذا الفصل الدراسي سوى تلميذين فقط، لذا، فهو يساعد في الأعمال الورقية الخاصة بالمدرسة. جلس بجوار "أنَّا" ووقعت عيناه على المقالة، فسألها عمَّا إذا كانت قد رافقت زوجها في ذلك الافتتاح. أجابته "أنَّا" بالنفي. لم تعد ترافقه في مثل تلك المناسبات منذ عدَّة أعوام.
قالت له:
- إن تلك الاحتفالات مرتبطة بعمله، ولا داعي لوجودي معه.
فما كان من زميلها سوى أن أومأ برأسه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

5

- توقَّفي!

هكذا قالت "أنَّا"، مُحرِّكةً يدها اليُمنى بعض الشيء وهي ترفع أردافها قليلًا في موضع جلوسها. ثم كرَّرتها مرَّة أخرى:

- توقَّفي!

رفعت هذه المرَّة يدها كي تمنع الفتاة من استكمال العزف إذا ما لم تكن قد سمعتها. فقد كانت النغمات تتداخل في بعضها، ويتباطأ إيقاعها، بدلًا من أن تُدوِّي بسرعة ووضوح. انتظرت "أنَّا" حتى تلاشى رنين النغمة الأخيرة، التي عزفتها الفتاة بنشاز، ثم قالت لها:

- لا أظنك تُولين عزفكِ الاهتمام المطلوب.

لم تُبدِ الفتاة أي رد فعل، فأضافت "أنَّا":

- أريدك أن تستشعري تلك الفوضوية التي تخلَّلت الإيقاع، فهي واضحة للآذان.

استنشقت "أنَّا" بعض الهواء، ثم أخذت تعزف على مفاتيح البيانو بعض النغمات، قبل أن تستكمل الشرح. كانت، كعادتها، تجلس بجوار تلميذتها. حرَّكت الفتاة رأسها قليلًا في اتِّجاه "أنَّا" كي تنظر إليها. فمنذ المحاضرة الأولى و"أنَّا" تُعاني مع تلك الفتاة بالتحديد، فهي تُعاندها، ولكن دون أن تنبس بكلمة واحدة، وكثيرًا ما يتملَّكها قدر من الغضب. ففي المحاضرة الأولى، أخذت تقرع بقوة على البيانو، بعدما واجهت بعض الصعوبات في عزف أحد الألحان. وما كان من "أنَّا" سوى أن جلست بجوارها دون أن تتدخل، حتى توقفت الفتاة من تلقاء نفسها. لم يسبق لـ"أنَّا" من قبل أن مرَّت بموقف كهذا مع أحد تلاميذها، ولكنها تستشعر الغضب الكامن داخل أعماق تلك الفتاة، إنها تضرب المفاتيح بدلًا من أن تنقر عليها، فتخرج الألحان بصوت صاخب. وما يزيد الطين بلَّة أنها تشعر بالرضا عندما تعزف الألحان بذلك التنافر. ربما تستفزُّها "أنَّا"، لأنها تتمكن من السيطرة على أعصابها وردود أفعالها.

قالت لها "أنَّا":

- انظري، أريدك أن تظهري الوقفات بين النغمات. اتركي مفتاح البيانو تمامًا قبل أن تلمسي غيره.

أخذت "أنَّا" تعزف بعض النغمات ببطء مُبالغ فيه، كي تُري الفتاة كيف تنقر على المفاتيح، وكيف تتركها، ثم قالت:

- أريدك أن تستخدمي يدكِ اليُسرى فقط حتى المقطع الختامي. وتريَّثي!

أخذت الفتاة تقلد حركات أصابع "أنَّا" المبالغ في حركتها البطيئة، لدرجة أن النغمات صارت أطول من اللازم، ولكن "أنَّا" لم تتدخل. قالت لنفسها إن تلك الفتاة سرعان ما ستتوقف عن عزف البيانو عندما تبلغ السن التي ستفرض فيها رغبتها على أبويها.

منذ فترة، تواظب الفتاة على طلاء أظافرها، وفي ذلك اليوم، كان لون الطلاء برتقاليًّا زاهي، أما "أنَّا"، فكانت عضلات يدها مشدودة، ما جعلها تمد أصابعها وتحرك المفصل كي تخف من حدة ذلك التشنج العضلي. سألت "أنَّا" الفتاة، ما إذا كانت تفضل أن تعزف على آلة موسيقية أخرى. كما أكدت لها أن الشعور بإحراز تقدم ضئيل ما هو إلا شعور طبيعي في كل البدايات. صحيح أن الفتاة ظلت

مهذبة أثناء الحوار، إلا أنها كانت صعبة المِرَاس. أكدت أنها لا تريد أن تتعلم أي آلة أخرى، وأنها اتفقت مع أهلها على تعلُّم البيانو.

بعد انتهاء الحصَّة، ذهبت "أنَّا" إلى متجر الأدوات الموسيقية؛ كي تشتري بعض النوتات. يروق لصاحب ذلك المتجر أن يُناديها بكلمة "مدام" بالفرنسية، ثم يُتبعها باسم عائلتها، وهو اسم نمساوي من أصول سلافية، ولكنه ينطقه بلكنة فرنسية. في أحد الأيام كان قد سألها عن اسمها الأول، ولكنها هزَّت رأسها، وأبت أن تُجيب، ثم استدرجها في الحديث، فأخبرته إياه مرَّتين، لكنها طلبت منه ألا يُناديها به.

"بالطبع"، هكذا أجابها صاحب المتجر بالفرنسية، ثم فتح لها الباب، وانحنى قائلًا بالفرنسية أيضًا:

- مع السلامة، مدام.

ولكنه الآن مشغول بمكالمة هاتفية في الغرفة الداخلية من المتجر. ودَّعت "أنَّا" الموظف الذي قام بخدمتها، ثم مشت متجهة إلى الميدان البعيد، الذي تتخلَّله بركة صغيرة. أخذت تتأمل أشجار النخيل التي زُرعت بشكل دائري حول البركة. قالت لصديقتها التي رافقتها إنها تشعر وكأنها في مكان مختلف، تمامًا مثل الشخص الذي لا يدرك حلول المساء، إلا عندما يشعر بالجوع. وإذا ما تحوَّل المساء إلى ليل، فلا يدركه إلا عندما يلاحظ الظلام من حوله؛ بعدما كان يجلس في الضوء أسفل مصباح يُنير الشارع، أو أمام شمعة على المائدة. قالت "أنَّا":

- اجتاحني هذا الشعور فجأة، بعدما زرع الحي ذلك النخيل حول البركة.

قالت لها صديقتها:

- عزيزتي "أنَّا"، إنك حقًّا في حاجة إلى إجازة!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

6

نامت "أنَّا" على جنبها، وكان رأسها يستقر على الوسادة، تمامًا مثلما اعتادت النوم في سريرها وهي طفلة. آنذاك، كان يوجد جدارٌ فاصلٌ بين غُرفتها والمطبخ، حيث اعتاد أبواها الجلوس أثناء احتساء القهوة. لطالما راق لها أن تسمع صوتهما في الصباح؛ صوت والدتها المتقطع، وصوت والدها الأجشّ. اعتادت أمها أن تجلس ملامسة للحائط، مُتَّكِئةً عليه بكتفها وذراعها. فإن لم يكن ذلك الجدار موجودًا، وتحركت "أنَّا" خطوة صغيرة تجاههما، لجلست بينهما أمام المائدة.

طَوَت "أنَّا" ساقيها تحت الغطاء، ثم رفعتهما إلى أعلى أمام بطنها، حيث الدفء. سمعت صوت "توماس" يتحدث بالتليفون. حاولت أن تخلد إلى النوم مرَّة أخرى، ولكنها سمعت ضحكات زوجها، ففتَّحت عينيها. لا يوجد أي اختلاف بين جدار حجرتها هذه، وجدار المطبخ في بيت طفولتها. فهي تستطيع أن تسمع الأصوات من خلالهما، ولكن يصعب عليها فهم الكلمات. بعد صمت دام بُرهة قصيرة، عاود "توماس" حديثه بالتليفون، ثم أنهى المكالمة، هذا ما استنتجته "أنَّا" من نغمة صوته. نظرت إلى المنضدة الصغيرة بجوار السرير، ووجدت عليها بعض المجلات وأقراص المغنسيوم، ثم خرجت من غُرفتها إلى مدخل البيت، لتجده وهو يأخذ مفاتيحه. قال لها في عُجالة:

- أراكِ مساءً.

نظرت إليه من فتحة الباب، فابتسم لها، ثم رحل. كان يرتدي معطف المطر وحذاءً رياضيًّا.

اعتادت "أنَّا" الوحدة، حتى في صباح إجازة نهاية الأسبوع. أخذت الجريدة التي وضعها "توماس" عند مدخل البيت، وجلست أمام مائدة المطبخ. تذكَّرت المرَّة الأخيرة التي تناولا فيها الإفطار معًا. ففي ذلك الصباح، طلب منها "توماس" أن تأكل شيئًا، وسألها، ما إذا كانت ترغب في تناول ساندويتش مربى. وحينها، أومأت برأسها، على الرغم من أنها لا تأكل ساندويتشات المربى أبدًا. في تلك اللحظة، تأكدت من وجود امرأة أخرى في حياته.

عندما انتابها ذلك الشعور للمرَّة الأولى، فقدت شهيتها لفترة. كانا يجلسان معًا في هذا المطبخ، وكان يوجد حينها مائدة أخرى غير هذه. ترك "توماس" شوكته، واقترب منها كي يجلس بجوارها. أخذ بشوكتها بعض الخضار، ووضعه أمام شفتيها، ثم رفع ذراعه الأخرى وشعرت بمُلامسته لها خلف رقبتها، لكنه سرعان ما ترك الشوكة، بل وترك المنزل أيضًا. لم تسترجع "أنَّا" شهيتها، إلا عندما تأكدت من خروج تلك المرأة من حياة زوجها. أما "توماس" فلم يفهم أبدًا كيف استطاعت زوجته أن تكشف كذبه، فلم يدرك أن اهتمامه بغذائها إشارة كافية لخيانته.

وقفت "أنَّا" وأخذت كوب الزبادي من الثلاجة، ومزجته برقائق الشوفان وبذر الكتان في صحن عميق. وعندما جلست مرَّة أخرى، أشعلت المصباح الأرضي في الزاوية. كان صباحًا ضبابيًّا. وكان صوت الأمطار يُدوِّي في الفناء الداخلي؛ رنين متقطع، وكأن الأمطار تساقطت على قطعة من الصفيح، إلى أن امتزجت بالضوضاء في الخارج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

7

ذات يوم، أخبرها "توماس" أنه اكتشف أفضل مكان على وجه الأرض، وأراد أن يُريها إياه. أوقف سيارته فوق هضبة عالية، ثم أخذا يتأمَّلان معًا شكل البيوت المُتراصَّة في الأسفل، التي يكسوها اللون الأبيض، مع درجات البُني على الأسقف. بدأت تُمطر بغزارة، فدخلا متجرًا للمواد الغذائية، والأدوات المنزلية، حيث احتسيا قهوةً خفيفة ومُرَّة إلى أن تهدأ الأمطار. وبعدها، أضاعا طريقهما وسط الغابة الرطِبة. احتفظت أوراق الشجر بلونها، فيما شكَّلت الأوراق المتساقطة غطاءً كثيفًا فوق الأرض. بدا وكأنه لا يوجد طريق محدد كي يسلُكاه، ولكنهما استمرَّا في السير إلى أن خفَّت كثافة الأشجار وظهرت أمامهما منطقة واسعة، فأشار إليها "توماس" قائلًا:

- ها هو هناك، المكان الذي أقصده.

حسِبته "أنَّا" في الاتجاه المعاكس، فشرح لها، أنهما أتيا من الناحية التي تقصدها. فردَّت قائلة:

- أنا لا أستطيع أن أفكر مثل البوصلة أثناء تأملي للطبيعة.

أخذ يشرح لها مقصده مرَّة أخرى، بينما أخذت هي تتأمل تدرُّج الألوان في تلك الغابة التي تُغطِّي الوادي أمامهما والهضاب من حولهما. وفجأة، اكتشفَت أن هذا الغطاء يتحرك، فأدركت أنه ليس غطاءً، بل مجموعة كبيرة من الحيوانات الأليفة، التي لم تتمكن من حصرها. انتابتها قشعريرة؛ تسلَّلت إلى جسدها مثل الرطوبة التي تحاصرهما. ثم أومأت برأسها، فقد فهمت مقصده؛ إنه حقًّا أفضل مكان على سطح الأرض. ضحك "توماس" دون أن يتكلم، فهو يعلم أنها لن تنتبه إليه. قالت له:

- لا يوجد أي شخص على الإطلاق. انظر حولك! لا أثر لأي شارع، ولا لأي بيت.

أشار بيده، حتى يعودا إلى السيارة قبل حلول الظلام، فهطول الأمطار من شأنه أن يُبكِّر من ظلمة الليل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

8

أمسكت "أنَّا" بورقة فارغة وقلم كي تكتب قائمة المشتريات. كتبت "خُبز"، ثم تذكَّرت أن صديقتها قد دعتها اليوم إلى العشاء، أما "توماس"، فسيأكل في الخارج، ومن الواضح أنه لن يعود إلى البيت قبل صباح الغد. إذًا، فلا داعي للتسوُّق. ها هو يوم السبت بأسره أمامها، وعندما يحين موعد إجازتها التي تمتد لعام كامل، بدءًا من الفصل الدراسي المُقبل، لن يقتصر شعورها بالفراغ على ذلك اليوم فقط، بل سيشمل بقية أيام الأسبوع أيضًا.

أرادت أن تذهب إلى حمَّام السباحة بعد الظهيرة، لم يتسنَّ لها الذهاب يوم الأربعاء كما اعتادت. كما أرادت أن تستمع إلى بعض المقطوعات الموسيقية، التي ربما يروق لتلاميذها عزفها. وأخيرًا، قررت أن تشتري بعض الخبز والجبنة وقليلًا من الفاكهة.

في المساء، قالت لها صديقتها:

- يا لكِ من امرأة شديدة الانضباط.

أجابت "أنَّا":

- إن لم يتمتع عازف البيانو بقدر غير مألوف من الموهبة، فلا يملك إلا أن يكون شديد الانضباط.

ضحكت صديقتها، بينما نظرت إليها "أنَّا" وهي تقطع أوراق الخسِّ وتضعها داخل الصحن. حكت لها صديقتها عن لقاء جمعها بطليقها، بينما تابعت "أنَّا" حركات يديها المتمرستين في الطهو، وهي تُحَمِّر بعض الذرة في المقلاة، فصديقتها طباخة ماهرة، وابنها في مرحلة المراهقة.

بعد أن فرغت من حديثها عن طليقها، قالت لـ"أنَّا":

- هذا ما حدث اليوم.

حكَّت جبينها بإصبع مقوَّسة، ثم نثرت حبَّات الذرة فوق أوراق الخسِّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

9

في مكالمة هاتفية قالت الأم لـ"أنَّا":

- احكِ لي شيئًا!

فأجابتها:

- ماذا أحكي؟

حكت لها بالفعل عن تراجع إقبال التلاميذ على محاضراتها، مقارنةً بالعام المُنصَرِم، وعن تولّي شخصٌ جديد إدارة المدرسة، كما طمأنتها على عدد ساعاتها التدريسية، الذي لم يتقلص.

شعرت الأم بالقلق حيال استقرار ابنتها الوظيفي. قالت لها:

- الحمد لله أنك لا تعتمدين فقط على راتبك الشهري.

طمأنتها "أنَّا" على أحوالها وأحوال زوجها المادية. ثم سألتها والدتها:

- ماذا ستفعلين اليوم؟

أجابت "أنَّا":

- لا شيء، ربما سأنظف البيت، أو سأتمشَّى بعض الوقت.

ثم سألت الأم عن "توماس"، وعندما أخبرتها "أنَّا" أنه ليس معها، استفسرت الأم سائلةً:

- ألا تقضيان إجازة نهاية الأسبوع معًا؟

استشعرت "أنَّا" قلق والدتها من صوتها، فأجابت على الفور:

- إنه مشغولٌ بالخارج!

قالتها لا إراديًّا، مثلما نبسط يدينا عفويًّا، كي نُمسك بشيء على وشك السقوط. تذكَّرت الأم كيف كانت تواظب مع والد "أنَّا" على الخروج مساء الأحد من كل أسبوع، كي يحتسيا معًا بعض المشاريب. أحيانًا كانت ترافقهما "أنَّا"، لتتناول شراب النعناع المُركَّز. وها هي الآن، تتوق إلى تناول أي مشروب مع والدتها في مطعم La Douceur))، قالت لها:

- كم يؤسفني تقصيري في زياراتي لكِ.

فكَّرت للحظة أن تأخذ القطار، كي تجلس معها غدًا أو بعد غد في ذلك المطعم، وتحكي لها كل شيء. فجأة، تذكَّرت كيف استخدمت هذه العبارة في حديثٍ لها مع „توماس“، عندما قالت له في إحدى المرَّات: „احكِ لي كل شيء“، بعد أن ترجمت الجملة بشكل حرْفي من الفرنسية، حيث يُقصد بها التعبير عن الاهتمام. اندهش „توماس“ من العبارة، ولكنها شرحت له، كيف أنها لم تقصد بها أي تطفُّل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

10

في وقت لاحق من ذلك اليوم، تنزَّهت "أنَّا" في الحديقة تحت رذاذ المطر. كانت تنظر إلى ساعة يدها كل عشر دقائق. وبعد مرور خمس وأربعين دقيقة، تركت الحديقة عبر المخرج المرتفع. وأثناء سيرها في الزقاق الضيق الذي يتجه إلى أسفل، ظهر صبيٌّ في الجهة المقابلة لها. لم يصرف نظراته عنها، إلى أن مرَّا بجوار بعضهما بعضًا. استدارت "أنَّا" لتلقي عليه نظرة. كان يمد يده ملامسًا لسور البيت بجواره، ولكنه لم ينظر إليها. وعندما توجَّهت ببصرها مرَّة أخرى نحو الأمام، رأت رجلًا يمشي مع زوجته في الاتجاه المقابل لها. إنها تعرفه، فهو عازف كمان، ولكنهما لم يتواصلا منذ فترة طويلة. ظنَّت أنهما سيمُرَّان بجوار بعضهما بعضًا، في ذلك الممر الضيق، دون إبداء أي إشارة لسابق معرفتهما. إلا أن عازف الكمان ابتسم لها، وعندما دنا منها، مد يده إليها. سعد العازف برؤيتها، ونطق باسمها، وهو يُعرِّفها على زوجته، فيما حاولت هي أن تتذكر ملامح الوجه الذي يقترن باسمها؛ لقد تطلَّعت اليوم في المرآة، ولكنها لا تتذكر كيف تبدو. ابتسمت لها زوجة العازف، وكان يتعيَّن عليها هي أيضًا أن تبتسم. تمنَّت لو أنها استطاعت أن تتذكر ملامح وجهها. سألها العازف عن الأوركسترا التي تعزف معها. رفعت يدها وأخذت تمر بأصابعها عبر شعرها بحركة لا شعورية، إلى أن لمست مشبك شعرها، وتذكَّرت أخيرًا، كيف بدت صباح اليوم أمام المرآة. أخبرته أن الأوركسترا قد تم حلُّها منذ عدَّة سنوات. وأخيرًا تسنَّى لها أن تبتسم لزوجة العازف، ثم سألته عن عمله. أخبرها أنه توقف عن التدريس، بسبب تضاربه مع مواعيد عروضه الموسيقية، ثم قال:

- كم أنا محظوظ، لأن زوجتي تحصل على راتب شهري ثابت، عِوضًا عن عدم استقراري المادي.

لم تتمالك "أنَّا" نفسها، ونظرت خلفها مرَّة أخرى. بحثت عيناها عن ذلك الصبيِّ، وتمنَّت لو أن ترى ظهره، ويده التي امتدت إلى سور البيت المجاور مرَّة أخرى، ولكن لم يكن له أي أثر. بدأ ظلام الليل يغشى المكان.

إن نصف مساحة حجرة المعيشة، حيث البيانو، هي بمثابة حجرة المكتب الخاصة بـ"أنَّا". عاد "توماس" إلى البيت، أثناء ترتيبها لملفَّاتها الخاصة بالأسبوع المُقبل. سمِعَته يتحرك هنا وهناك لبعض الوقت، إلى أن انضم إليها، وجلس على الأريكة، ثم وضع الجريدة فوق المائدة الزجاجية بجواره. سألها:

- كيف حال والدتك؟

يعلم أنهما تتحدثان بالتليفون أيام الأحد من كل أسبوع، في فترة الظهيرة. أجابته:

- لا جديد! تريدني أن أقُصَّ عليها الحكايات، ولا تصدِّق أنني لا أملك منها إلا القليل.

فقال لها:

- إذًا، اخترعي بعض القصص.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

11

في إحدى ليالي شهر يونيو جلست "أنَّا" أمام البيانو، ووضعت يديها على حجرها. لامست أطراف أصابعها رُكبتيها. وحالما رفعت يديها، عرفت أصابعها الطريق إلى مفاتيح البيانو على الفور. أخذت تتنفس، لأن ألحان اليوم الكامنة في أعماقها تحولَّت إلى اضطرابات فوق كتِفَيْها، حيث تسلَّلت إليها ألحانٌ متقطعة، وإيقاعاتٌ متداخلة، وخفقاتٌ مضطربة.

عندما تنتابها تلك الحالة، يروقها أن تعزف ألحان "باخ"؛ مثل مقطوعات "الفوجا"، و"تنويعات جولدبيرج"، ولكنها شعرت بعزفها يُدوِّي بنشاز، إذ أثَّر التنافر الذي يعزف به تلاميذها على مسامعها. وبعد مرور نصف ساعة، أخذ صوت ألحانها يصفو من تلك الشوائب.

وضعت أصابعها على المفاتيح، وأخذت تنقر عليها بلُطف. شعرت ببعض الشظايا الرفيعة، فرفعت أصابعها وعاينت المفاتيح، ولكنها لم تجد عليها شيئًا. بدا وكأن أصابعها مُخدَّرة، فأدارت باطن كفِّها الأيسر، وأخذت تضغط بظفر الإبهام على طرف السبابة، حتى شعرت بالألم. نقرت مرَّة أخرى على المفاتيح، وشعرت بها فقط في سبَّابتها اليُسرى، التي سرعان ما تخدَّرت مرَّة أخرى. ومع خامس نقرة، شعرت بالشظايا مجددًا. ثم قرعت بأصابعها على المفاتيح بقوة، لدرجة أنها لم تسمع أي نغمة، بل نفحة هواء جافة. ظلَّت ضاغطة على المفاتيح بأصابعها، وأخذت تُعاين الخشب بين أطراف المفاتيح الجانبية، ووجدته ناعمًا ومتساويًا.

منذ بضعة أيام، أخبرها "توماس":

- لم يتبقْ لكِ وقتٌ طويل في العمل.

فأجابت:

- ستبدأ الدورات الصيفية بعد نهاية العام الدراسي بأسبوع واحد.

فقال لها:

- صحيح، لقد نسيت.

عندما كانت تخطط لعام التقاعُد، اتفقا على عدم السفر إلى الخارج أثناء الصيف، على أن يسافرا عدَّة مرَّات على مدار العام، ولذلك، ستعمل في عدَّة دورات صيفية، كما ستتولَّى إعداد برامج كثير من الحفلات الموسيقية.

أثناء الصيف كانا بالكاد يلتقيان بالمنزل، لذا، حرصا على الالتقاء مرَّة أو اثنتين في الأسبوع، ليتناولا العشاء معًا في مطاعم مختلفة. كانا يفضلان الجلوس في الحديقة الخارجية، أو التراس، حيث ظل الطقس معتدلًا مع حلول المساء طوال الصيف.

في إحدى المرَّات، قال "توماس":

- أنا واثق أننا سنقضي صيفًا ممتعًا، على الرغم من التزاماتنا المهنية.

فأخبرته:

- كم أتمنى لو أن مستوى التلاميذ طوال العام الدراسي يضاهي المستوى الرائع الذي يتمتع به أقرانهم في الدورات الصيفية.

أخبرها عن الصعوبات المالية التي يواجهها، فهو لا يضمن الحصول على التمويلات اللازمة للمهرجان. حاولت أن ترفع من روحه المعنوية قائلةً:

- دائمًا ما ينفكّ الكرب في النهاية. فمنذ بداية عملك بهذا المهرجان وأنت تتحدَّى تلك الصعاب.

قال:

- ولكني أخشى أن تصبح الأمور أكثر تعقيدًا العام المُقبل.

تعوَّدت "أنَّا" على سفر زوجها المتكرر في إجازة نهاية الأسبوع، وانشغلت هي بالمحاضرات كل يوم سبت. ذات مرَّة، سافر "توماس" عشرة أيام دون أن يتواصل معها ولو مرَّة.

مرَّ الصيف سريعًا، وفوجئت بحلول شهر سبتمبر. وهكذا، انتهى العمل في إعداد الحفلات الموسيقية، وطلب منها القائمون أن تتعاون معهم في الصيف المُقبل، بينما تمنَّى لها زملاؤها بمدرسة الموسيقى عامًا سعيدًا من التقاعُد، وكل التوفيق في تأليف كتابها التعليمي. أما بالنسبة لها، فكان استغلال تلك الإجازة في العزف على رأس قائمة أولوياتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

12

- لا داعي للعجلة!

هكذا قالت "أنَّا"، عندما دفعتها امرأة داخل الترام. فأكثر الجمل التي تألفها في اللغة الألمانية هي تلك التي تُرددها في المحاضرات. فهي تتكرر دائمًا، لدرجة أنها لم تحتج إلى إضافة أي جمل أو عبارات جديدة عليها، منذ خمسة عشر عامًا.

عندما بدأت تمتهن التدريس انتابها القلق من تقدُّم تلاميذها اللغوي، مقارنةً بها. ولذلك، حرصت على ألا تُسيءَ فهمهم، وألا تَصدُر منها أي أخطاء لغوية، لدرجة أنها ركَّزت اهتمامها على اللغة أكثر من العزف. ومع كل تلميذٍ جديدٍ، تجدَّدت خطورة تحدُّثِه بلكنة غريبة عليها لا تفهمها. فاللكنات الألمانية لا حصر لها، وكل واحدة منها ترن في أُذني "أنَّا" وكأنها لغة جديدة. كانت تتنفس الصَّعداء عندما تعود إلى البيت وتتحدث مع "توماس"، فلغته هي التي تألفها، وإيقاعه هو الأوضح، وطريقة نطقه هي الأسهل.

ذات يوم، قال شخص ما إنه عندما يتحدث معهما، سرعان ما يستشعر تأثُّر لغة "أنَّا" بلغة زوجها. وعلى الرغم من أنه لم يقصد بذلك التعليق أي إساءة، فإن وقعه عليها كان كالصاعقة. فعندما تسهو، وتخاطب زوجها بالفرنسية، يرد عليها بالفرنسية ساخرًا: "نعم، نعم"، أو: "بالطبع"، ثم ينتظر أن تضحك من فرط خفة دمه، وأن تعيد صياغة الجملة باللغة الألمانية. وبعدما أدركت، أنها هي التي تأخذ على عاتقها التكيُّف مع لغته الأم، أخذت تتعمَّد مخاطبته بالفرنسية، بل وتستطرد بها بعد تلك الـ"نعم، نعم" التي تبدر منه، حيث كان الأجدر به - من وجهة نظرها - أن يُكلِّف نفسه عناء تعلُّم لغتها أيضًا. في إحدى المرَّات، اختتمت حديثها بعبارة سب - فرنسية - لم يسبق لها أن قالتها طيلة حياتها. رمقها "توماس" بنظرة شائكة، قائلًا:

- ماذا بكِ؟

مسحت على خدِّه قائلةً:

- مشاكل لغوية.

تعلم أن اللغة الألمانية التي يتحدثان بها معًا ليست اللغة الأقرب إليه، إذ إنه بالأصل يتحدث بلكنة مُغايرة. وإن نَطَق بها أمامها سهوًا، سرعان ما يُعاود ضبط نفسه، ويتحدث بالألمانية التي تألفَها. كما أنه أحيانًا يُحدِّثها بلكنة نمساوية عامة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

13

تذكَّرت "أنَّا" رحلاتها مع "توماس" على الطريق السريع، والتي تُشعرها بالتحرر. إنها محفورة في ذاكرتها، فلطالما كانت تتوق إليها، على الرغم من أنها اعتادت حياة المدينة لسنوات طويلة؛ في باريس، ثم في فيينا. لم تشعر حينها أبدًا بالرغبة في الفرار إلى الطبيعة، ولكنها بعد أن امتهنت التدريس، بدت أيام الأسبوع عصيبة، لذلك كانت تنتظر حلول يوم السبت بفارغ الصبر، كي ينطلقا معًا من داخل السيارة ويسلكا الطريق إلى الطبيعة.

لم ترغب أبدًا في القيادة، فهي تستمتع بالطريق وهي جالسة بجوار زوجها، وهما ينتقلان من المناطق المألوفة إلى المناطق الجديدة. كان مع كل مرَّة، يعرض عليها عدَّة وجهات، ثم يختار هو واحدة، فتوافق عليها. وبعدها، يشرح لها أكثر عن المكان، طالبًا منها أن تأخذ الخريطة من صندوق التابلو. ولكنها لم تهتم أبدًا بالمعلومات الجغرافية بقدر ما كانت تتوق إلى أن تُسرع السيارة في الطريق، لتنتابها تلك القشعريرة، التي تدوم للحظة وجيزة.

كان يقول لها إن الخريطة ستساعدها ألا "تضلَّ طريقها". راق لها هذا التعبير، ولكنها "تجد طريقها" عندما يقود زوجها السيارة، دون أن تلتفت إلى الخريطة، ودون أن تعلم، ما إذا كانا في الولاية نفسها أم أنهما اجتازا الحدود. وعندما يتنزَّهان معًا، تتأمل الأشجار والغابات والتلال والحقول والآفاق من حولها. هكذا "وجدت طريقها" دائمًا، تمامًا مثلما تشعر عندما تعزف ألحان "باخ" بعد انتهاء محاضراتها.

في إحدى المرَّات ركن "توماس" السيارة في قرية ما، وأخذا يتنزَّهان بمُحاذاة طريق من الأسفلت، إلى أن وقفا أمام بوَّابة أحد البيوت التي بدت جميعها متشابهة. نظرا إلى مدخل البيت من بين القضبان الحديدية. قال لها:

- إنه منزل أحد أقاربي.

سألته:

- جدتك؟

شرح لها صلة القرابة البعيدة، وأخذا يتأملان البوَّابة. كانت توجد عصيان حديدية أمام نوافذ الطابق الأرضي أيضًا، وكان الجو حارًّا. سألته:

- ألا تريد أن تقرع الباب؟

فأجابها:

- كلا!

ثم سلكا طريقًا ضيقًا، بعيدًا عن البيوت، حتى خفَّت الحرارة، وحلَّ الظلام، ووصلا إلى هضبة بها بستان مليء بشجر التفاح بمختلف أنواعه. أخذا يتذوَّقان الثمرات المُلقاة على العشب الرطِب، ثم يقطفان الثمار التي استمتعا بمذاقها، حتى امتلأت حقائب ظهرهما عن آخرها. وبينما عمَّ السكون أرجاء المكان، وبدت المنطقة وكأنها مهجورة، أخذا يقطفان الثمار بجدٍّ واجتهادٍ، ويقفزان بلا ضجيج، باسطيْن ذراعيهما إلى أعلى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

14

لأول مرَّة منذ سنوات لن تذهب "أنَّا" إلى المدرسة. قال لها "توماس":

- فلتستمتعي بالخريف! وعليكِ ألا تنسي سبب قرارك بأخذ إجازة لمدة عام. فالكتاب الذي تؤلفينه ليس هو الأساس.

أخذ يُفتِّش في حقيبته الجلدية، التي بدت مثل حقائب المدارس، وتحسَّس جيوب المعطف بحثًا عن موبايله، ثم ودَّعها.

جلست "أنَّا" مع فنجان القهوة أمام مائدة المطبخ. إنه يوم خريفي جميل، فالشمس تتخلل الفضاء الأبيض في الفناء، لتعكس ظلال الجوارب المنشورة على حبل الغسيل، وهي تتحرك ببطء بجوار بعضها. وهناك، حول البحيرة، جلس مجموعة من الناس ملاصقين لبعضهم، وتدلَّت أقدامهم في المياه، وعلى يسارهم أقدام الأطفال الصغيرة متفرقة عن بعضها. فتح أحد الأطفال ساقيه وانحنى إلى الأمام ليرى انعكاسه على المياه الصافية وليُحدِّق في الأسماك. أما الكبار، فجلسوا بانتظام، بعد أن أخرجوا أقدامهم من المياه، بسبب هبوب الرياح. وعلى اليمين، ساقان صغيرتان، ولكن أكبر من سيقان الأطفال، حيث جلست فتاة صغيرة بزاوية جانبية.

جلست "أنَّا" هناك ذات يوم، وحدها، في بداية الصيف. ولم تشعر بحرارة الشمس، بل بدفء بسيط، بسبب برودة البحيرة التي تسلَّلت إليها. أما "توماس" فكان يسبح بعيدًا. فيما حلَّقت طيور السنونو، لتصطاد طعامها. لم تبدُ في رحلة صَيْد، بل في لوحة فنِّية، يقتربوا بشدَّة من المياه، ليخطفوا طعامهم ويُحلِّقوا مرَّة أخرى إلى أعلى.

تناولت «أنَّا» رشفة من قهوتها، ثم وقفت، وبصقتها في الحوض، وسكبت بقيَّتها، ثم ألقَت بالفنجان، ولكنه لم ينكسر. تركت المنزل سريعًا، وأخذت تتمشَّى لفترة طويلة، وبخطوات واسعة، إلى أن شعرت بالتعب. نظرت من حولها، فهي تعرف هذا الشارع الذي وصلت إليه، ولكنها لم تلتفت إلى تلك المتاجر من قبل. وجدت «كافيه» شهيرًا، يتجاوز عُمره مائة عام. شعرت بالجوع، فدخلته وتناولت ساندويتش من الجبنة، مع قهوَّتها، ولكنها ندمت لأنها لم تُحضر معها دفتر الملاحظات، فالأجواء مناسبة للتفكير والتأمل.

وفي اليوم التالي، ازداد شعورها بالغثيان مع تناول القهوة، فتركت الفنجان وخرجت. وبعدها بيوم، حاولت أن تعود إلى روتينها المُعتاد، ولكن لم تخفّ حدَّة شعورها بالغثيان، إلا بعدما تركت المنزل. وبذلك، تعوَّدت على الذهاب إلى الكافيه مع صباح كل يوم، حيث شرعت في تأليف كتابها.

قالت لصديقتها:

- أخيرًا، صارت لديَّ عاداتي الخاصة في هذا البلد.

كثيرًا ما تدعوها صديقتها إلى الطعام، فـ"أنَّا" ليست متمرِّسة في الطبخ. مؤخرًا، ألقت عبوَّة من اللحم في القمامة، لأن رائحتها القوية جعلتها تظن أنها فسدت. كما أنها تمتنع عن شراء الجبنة، لأنها دائمًا ما تجد عليها بعض البقع، ولا تستطيع أن تُجزِم مما إذا كانت الجبنة سليمة أم فاسدة. في إحدى المرَّات، تغلَّبت على قلقها وأكلت قطعة من الجبنة، ولكنها سرعان ما شعرت بالغثيان. أما الخضار، مثل الباذنجان والكوسة، فلا يُشكِّل لها أي مشاكل، فقد اعتادت شراءه من المتجر الإيطالي القريب من

منزلها. وبالنسبة للخَبز، فهي لا تشتري إلا الكمية التي ستتناولها في اليوم. وأحيانًا تترك البيت بعد الظهيرة لتأكل وجبة خفيفة.

قالت لها صديقتها:

- تدلَّلي يا عزيزتي كما يحلو لكِ!

تستمتع "أنَّا" بعزوفها عن الطبخ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

15

بعد مرور عدَّة أيام، أدركت "أنَّا" أنها تستمتع بالجلوس في ذلك الكافيه القديم، لأنه لا يصدح بالموسيقى الصاخبة، التي تُدوِّي من مُكبِّرات الصوت مباشرة فوق رؤوس الزائرين. ففي أغلب البارات والمطاعم، تستطيع "أنَّا" أن تحدد موضع مُكبِّرات الصوت حالما تجلس، دون الحاجة إلى التفتيش عنها، كما أنها تتمكن من تحديد نوع الموسيقى على الفور. وإن كان الصوت هادئًا، فتتجاهله، أما إذا كان صاخبًا، فيتسلَّل إلى رأسها، ويستقر لمدة يومين، أو ثلاثة. ولكن هنا، في هذا الكافيه، لا توجد موسيقى من الأساس.

تلتزم "أنَّا" بساعات العمل التي حدَّدتها لنفسها، إذ تجلس في الصباح لمدة ساعتين ومعها دفتر الملاحظات، تُدوِّن فيه تجاربها، وترصد خبراتها فيما يتعلق بتطور مهارات الصغار مع تعلم الآلات الموسيقية، كما تتناول المراحل المختلفة والصعوبات والمشاكل المتعلقة بتعلُّم العزف، وكيفية اجتيازها. لا يروق لها لون الدفتر الأزرق، إنها تتوق إلى ملئه حتى آخر سطر، كي تشتري غيره.

خصَّصت فترة ما بعد الظهيرة للعزف والتمرين. جهَّزت النوتات الموسيقية ووضعتها في مكانها على البيانو؛ ولكنها اكتشفت أنها تكرر حركات الأصابع نفسها، لتتنقل بين مسافتين أو ثلاث على المفاتيح، وأن تلك الحركات قد تكون صعبة على تلاميذها، بل وربما لا تعزف النغمات بإتقان. فالصورة التي ترسمها تلك النغمات، أشبه بلوحة مُرتبكة وفوضوية.

سألت نفسها عمَّا كانت تُعلِّمه لتلاميذها طوال السنوات الماضية. أخذت تجلس كل يوم أمام البيانو في تمام الساعة الثانية، وفي كل مرَّة، تُؤجِّل فتح غطائه. تعلم ذلك بسبب أجراس الكنيسة التي تسمع رنينها من بعيد، على الرغم من أنها لا تعلم أي كنيسة هذه. وأخيرًا تفتح الغطاء. ذات يوم، وضعت يديها فوق المفاتيح بجوار بعضهما، وأخذت تُمعن النظر إليهما. إنهما يدان صغيرتان، بالكاد تصلان إلى المسافات بين المفاتيح. لطالما اعتادت ألا تراقب يديها أثناء العزف، فدائمًا ما تعرف مكانهما. فهما تُطمئنان بعضهما عندما تبتعدان، وأحيانًا تتلامسان، وأحيانًا تستلقي إحداهما على الأخرى، أو تتشابك أصابعهما. دائمًا ما تشعر "أنَّا" بأطراف أصابعها، وبأبسط مكروه يمكن أن يلحق بها، وبطبقاتها الجلدية عندما تتصلَّب. كما تشعر بالتجويف في باطن كفَّيها، وأوتار مفاصل يديها.

وضعت النوتة الموسيقية أمامها، كي تبدأ العزف، ثم وضعت يديها على المفاتيح، ونظرت إلى النوتة. ولكن يديها لم تتحركا لتعزفا النغمات الأولى، إلا عندما نظرت إليهما. فعندما رفعت بصرها كي تنظر إلى النوتة، ثبُتت يداها. صارت "أنَّا" كالمبتدئين، تعاني كي تلحق بتبديل النظر بين النوتة ويديها. وكأن يديها لم تعزفا من قبل، على الرغم من أنهما طالما عزفتا من تلقاء نفسيهما، حتى وإن ظنَّت أنها نسيَت الألحان. توقَّفت عن العزف، مثلما يتوقَّف تلاميذها عندما يُخطئون، فهم يتوقفون على الفور، حالما تضع يدها اليُمنى على حجرها وتقول: "كفى!".

أعادت "أنَّا" يديها على حجرها.

دائمًا ما تُشَجِّع تلاميذها على العزف بتروٍّ ودقَّة، نغمة بعد نغمة. وبعدها، تطلب منهم أن يتوقفوا، ليتنفَّسوا بانتظام، ثم يستكملون العزف. كما تحرص على مراقبة حركة أياديهم، وحالما تلاحظ عدم عزفهم بتساوٍ، أو تعثُّر أصابعهم فوق المفاتيح، سرعان ما تُبعِد أياديهم عنها. لطالما شجَّعت تلاميذها

على أن يُخبروها بصراحة ما إذا كانوا يستمتعون بالعزف على البيانو، أو إذا كان مستوى التدريبات صعبًا عليهم.

نظرت إلى يديها المُستقرَّتين على حجرها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

16

تذهب "أنَّا" كل أربعاء إلى حمَّام السباحة؛ تأخذ في حقيبتها القماش المايوه، والمنشَفة، وجِل الاستحمام، والنِّعال. وفي الباص، أدارت رأسها كي تراقب الطريق عبر النوافذ، ثم أرادت أن تجلس في المقدمة أمام النافذة الأمامية، فترى المشاهد بصورة أوضح وأكبر. وقف رجل باسطًا ذراعيه، ممسكًا على جانبيه بقضبان معدنية تساعد على عدم الوقوع، لدرجة منعت المرور من جواره. لم تكن قدماه الحافيتان شديدتي الاتساخ، بل كانتا ناصعتي البياض، مع بعض البقع الحمراء. تأمَّلت محاولات قدميه للثبات أثناء سير الباص، ثم نظرت إلى حافة بنطلونه وإلى كعبيه الأكثر بياضًا. وعندما نظرت إلى أعلى، كان قد قفز خارجًا من الباص. نزَلَت في المحطة نفسها، ولكنها سلكت طريقًا آخر، في زقاق ضيِّق يؤدي إلى الحديقة المُطِلَّة على الناحية الخلفية من صالة حمَّام السباحة.

كشف حائط الصالة الزجاجيّ عن جميع الزوار في ملابس السباحة. أمَّا الشجر، فكان عاريًا وداكنًا، بلا أوراق. حلَّق طائر صغير بجوارها بعد أن كان واقفًا على غصن شجرة صغيرة. تساءلت، ما إذا كان قد جاء من الجنوب.

عندما وصلت إلى الصالة، توجَّهت إلى غُرفة تغيير الملابس، حيث الدواليب المعدنية الصفراء، والأرض ذات البلاط الأزرق الفاتح. بدأت تخلع ملابسها؛ المعطف، فالكنزة، ثم التنورة، فالجوارب الطويلة. وبعدها، ارتدت النعال، ثم خلعت قميصها الداخلي. كانت وحدها في الغرفة الساكنة، حيث تلاشت الأصوات النابعة من حوض السباحة عبر الأبواب الزجاجية، ولكنها أصدرت طنينًا بسيطًا، ثم سمعت بعض الخطوات، وشعرت ببعض الهواء؛ دخلت سيدة، ووقفت بجوارها أمام الدواليب. تبادلتا التحية، ثم خلعت السيدة المعطف، فيما ضبطت "أنَّا" المايوه. وبعدها، أدخلت شعرها أسفل بونيه الرأس، المخصص للسباحة، وهو بالمناسبة ليس إجباريًّا في النمسا كما الحال في فرنسا. تحمَّمت سريعًا، ثم توجَّهت إلى حوض السباحة بالمايوه المُبتلّ، ما جعلها تشعر بالقشعريرة.

أخذت تسبح بضع لحظات، حتى تعوَّدت على درجة حرارة المياه. وبعد مرور عشرين دقيقة - كما تبيَّن في ساعة الحائط العملاقة - شعرت بالحرارة في وجهها. اتَّكأت على حافة الحوض بذراعيها، وأخذت تحرِّك ساقيها تحت الماء. بعد أن عاودت السباحة بعض الوقت، خرجت من الحوض، وجلست على كرسي حمَّام السباحة إلى أن انتظمت أنفاسها. وبعد ذلك، تحمَّمت بمياه دافئة، وجفَّفت نفسها، ثم ارتدت ملابسها الداخلية، وجلست على دكة صغيرة، كي تُجفِّف قدميها، ثم ارتدت الجورب الطويل، فالتنورة، ثم البوت، ثم القميص الداخلي. وأخيرًا، وضعت أغراضها في الحقيبة قبل ارتداء الكنزة والمعطف. وفي طريق عودتها بالباص لم تلتقِ أحدًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

17

إن اليوم الذي تذهب فيه "أنًّا" إلى حمَّام السباحة هو يوم الراحة من العزف، وهي تنصح به بعض تلاميذها، على أن يتم تثبيته في يوم محدد. أما الكسالى، فتطلب منهم أن يُواظبوا على التدريب كل يوم، وهي تعلم أن عددًا قليلًا منهم فقط هو الذي سيحرص على ذلك، ولكن "توماس" يرى أنه من الخطأ ألا تسمح للكسالى بيوم من الراحة.

في طريق العودة من حمَّام السباحة، ذهبت إلى محل الورد. وفي المنزل، أخذت الورد الذابل من المائدة الصغيرة بجوار البيانو، وألقت به في القمامة، ثم وضعت وردًا جديدًا داخل الفازة. وكل يوم - فيما عدا الأربعاء - تأخذ الفازة وتدخل بها إلى المطبخ، لتبَدِّل المياه وتقُصَّ أطراف أغصان الورد، كي تدوم لفترة أطول. دائمًا ما يقول "توماس" إن "أنًّا" تعامل البيانو كما يعامل فارس الأحلام حبيبته. أحيانًا تشتري باقة ورد لمكتب "توماس"، ولكنها كثيرًا ما تنسى ذلك، فتعود إلى البيت بباقة واحدة.

فتحت باب حجرة مكتب "توماس". صار لا يُغلق الأريكة التي تتحول إلى فراش، ولم يعد يطوي الغطاء ليضعه مع الوسادة على جانب الأريكة. فمنذ فترة طويلة، لم تَعُد تسمع أصوات الخدش التي تُصدِرها الأريكة عندما يفتحها كي ينام عليها. نظرت إلى البيَّاضات، والغطاء، والوسادتين المضغوطتين. وفجأة، سمعت خدشًا أصابها بالفزع، وشعرت بحركة قوية أمام النافذة، فأخذت وضع الاستعداد للهجوم، ودفعت طرف الباب بقبضة يدها، إلى أن أدركت أن مصدر الصوت ما هو إلا حمامة طارت من أمام النافذة.. فتركت حجرة المكتب، وأغلقت الباب.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

18

قالت "أنَّا" لصديقتها:

- أعلم أنه يخونني.

سألتها صديقتها:

- ماذا حدث لخُطَط السفر؟

أجابتها:

- إنه مشغول! ولا أعلم إن كان انشغاله هذا بسبب العمل، أم أن حياته العاطفية هي التي تُشغِله هذه الأيام.

رمقتها صديقتها بنظرة حائرة. حاولت "أنَّا" أن تتذكَّر ما إذا كانت قد سَهَت، وتحدثت معها بالفرنسية. ولكن صديقتها سألت:

- هل تعتقدين أنه على علاقة بامرأة أخرى؟

أجابتها:

- أنا متأكدة من أنه على علاقة بامرأة أخرى.

- مع من؟

- لا أعلم من هي، ولكن ما الفرق على أي حال؟

- هل لديكِ دليل؟ إذا رفعتِ دعوى للطلاق، فستحتاجين إلى أدِلَّة.

- كلا!

- هل تظُنِّين أنها نزوة عابرة؟

- لم أفكر في ذلك بعد.

- اطرديه! وسترين كيف سيعود إليكِ زاحفًا.

- أرجوكِ، لا داعيَ للعبارات الكليشي، فالموقف أصلًا لا يحتمل مزيدًا من الكليشيهات.

- إنني حقًّا مندهشة من رزانتك. هل تريدين أن تعيشي معه؟

- لم أفكر في ذلك بعد.

- الطلاق لن يزيد الأمور إلا تعقيدًا.

- من الجنون أن نعتقد أن الزواج يُبَسِّط الأمور. هل تعلمين أننا قمنا بشراء البيانو من مبلغ الدعم المالي، الذي حصلنا عليه عند الزواج؟

- أما نحن، فسدَّدنا به ثمن منزلنا. هل ما زال يحصل المتزوجون هذه الأيام على الدعم المالي؟

- لا أعلم.

- سيبدأ ابني العام المُقبل بالدراسة في الجامعة، لا أعلم كيف سأوفِّر له ثمن سكنه الخاص، أريده أن يكون مستقلًا. أعتقد أننا قريبًا سنصبح مثل الإيطاليين، حيث يعيش الأبناء في بيوت آبائهم.

عندما تأخَّر الوقت، سألت "أنَّا" صديقتها:

- ماذا كنتِ تقصدين بالأدِلَّة؟

- إذا لم تتمكني من إثبات خيانته لكِ، لن تحصلي على حقوقك المادية. وهو ظلمٌ بيِّن، في حال ثبوت خيانته لكِ بالفعل. هل سيكفيكِ راتبك الشهري كي تعيشي ميسورة الحال؟

- ليس في هذا الحي الراقي بالتأكيد.

- أترين؟ يمكن أن أصف لكِ عنوان أحد مكاتب التحرِّيات.

ذكَرَت صديقتها اسم شارع ما، فقالت "أنَّا":

- أعرف هذا العنوان. ولكني بالتأكيد لن أذهب إلى مكتب للتحرِّيات.

صمتت صديقتها، وعندما ودَّعَتها، طلبت منها على الأقل أن تتأكد من شكوكها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

19

في اليوم التالي، كان الكافيه مُزدحمًا لدرجة أن "أنَّا" لم تجد مكانًا لها بسهولة. إنه يوم الأحد، حيث يتناول الناس الإفطار في الخارج، وتعلو أصواتهم. لم ترَ أيًّا من الزبائن الدائمين، فتناولت قهوتها، ثم رحلت على الفور، دون أن تأكل أي شيء.

أرادت أن تذهب سيرًا إلى العنوان الذي ذكَرَته صديقتها. فهي تعلم ذلك الميدان الذي تتفرَّع منه ثلاثة شوارع ضيِّقة. فقد كانت تسكُن في أحد تلك الشوارع في الماضي.

تمشَّت إلى أن وصلت إلى المبنى الذي كانت تقطن به. تطلَّعت إلى الحائط الخارجي الذي لم يسبق لها أن رأته من قبل. فالمبنى في الصف الخلفي من الشارع، حيث كان يحجبه مبنى آخر مُلاصق له، ولكنه هُدِم، وتحول إلى موقع بناء.

عمَّ سكون يوم الأحد أرجاء المنطقة. نظرت "أنَّا" إلى الطابق العلوي، حيث توجد البلكون الوحيدة في المبني، في الشقة التي كانت تقطن بها.

كانت تعبر من داخل المبنى الأول، الملاصق للمبني الذي تسكن فيه، كي تصل إلى شقتها. وبعد مرور شهرين، اكتشفت ممرًّا خاصًّا في الناحية الخلفية.

لم تهتم بفرش البلكون على غرار باقي البلكونات في الشوارع المحيطة. نصحها أحد الأصدقاء ذات مرَّة، أن تضع فيها كرسيًّا ومائدة صغيرة، مع بعض قصاري النباتات، ولكنها لم تلتفت لنصيحته، فقد كان يحلو لها الجلوس على البلاط والنظر في اتِّجاه الشمس، لتفتح عينيها وتنظر إلى السماء التي يتخللها بُرجا الكنيسة، وأسقف البيوت، التي تحجب الشوارع والطرقات، فتتأمل تلك البانوراما، وتستمتع بتناسُقها، بينما تسطع الشمس مباشرة من فوقها. هكذا أحبَّت بلكونها؛ بلا كراسي، وبلا نباتات.

ذات مرَّة زارها أحد الأصدقاء، ووقف بجوارها في البلكون، وأخذ يتأمل المشهد من حوله، ثم أشار إلى السقف من أمامهما، قائلًا:

- هناك، مدخل العمارة، أليس كذلك؟

ثم أشار إلى بُرجي الكنيسة وشرح لها مكان الحديقة التي تتنزه فيها، ومكان الترام وميدان النافورة.

نظرت "أنَّا" إلى واجهة المبنى البسيطة، وإلى البلكون الوحيدة في الأعلى. فقد كانت تُضاهي المبنى بساطة. لم يوجد قضبان بالنوافذ، بل عصي معدنية رفيعة، بدت وكأنها حواجب على وجه تمثال قبيح. لم تدرك ذلك عندما كانت تقطن هنا.

حاولت أن تتذكَّر ذلك الرجل الذي وقف بجوارها مشيرًا إلى التفاصيل من حولهما، ولكنها لم تتذكَّر سوى هيئة شاحبة من زاوية جانبية، وذراع ممدودة إلى الأمام، دون ملامح، ودون صوت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

20

في يوم الإثنين، عاد السكون المعتاد في الكافيه، حيث جلست "أنَّا" أمام دفتر الملاحظات. لم تخطر ببالها أي أفكار حول تعلُّم الموسيقى. كانت شاردة في مكتب التحريات، والبيت الذي سكنت فيه في الماضي، دون أن تدرك مدى قبح واجهته. أما الآن، فقد صارت تمتلك الأدلَّة اللازمة لإثبات مدى قبحه، ولكن ماذا عن أدلَّة إدانة زوجها؟

عادت إلى المبنى، حيث وجدت حراكًا عند موقع البناء. وقفت عربة نقل كبيرة في الشارع مكتوب عليها: "مواصلات سيلو"، كانت صاخبة بعض الشيء، ولكن لم تكن مُزعجة. تُذكِّرها كلمة "سيلو" بالزراعة والتسميد، فتعجَّبت من ارتباط ذلك الاسم بالبناء والتشييد، خاصةً في قلب المدينة.

في أي عام كانت تقطن هنا؟ أخذت تُفكِّر مليًّا في ذلك الرجل الذي وقف بجوارها في البلكون مشيرًا إلى سائر الاتجاهات. كان ذلك بالتأكيد بعد فترة المنحة الدراسية التي حصلت عليها، وقبل فترة التدريس، عندما كانت تعزف في كافيهات أحد الفنادق، بينما تدْرُس وحدها قواعد النحو والصرف الألمانية، بعد أن امتنعت عن قراءة الصحف والكتب الفرنسية. فبعد قرارها بالاستقرار في النمسا، تعيَّن عليها أن تجد عملًا، ولذلك كان ضروريًّا أن تُتقن الألمانية. ولكن لم يكن لديها المال الكافي للالتحاق بدورات اللغة. ذات يوم، شاهدت فيلمًا فرنسيًّا دون أن تنظر إلى الترجمة الألمانية أسفل الشاشة. وعندما تركت صالة السينما، شعرت بوخز الضمير.

حدَّقت "أنَّا" في المبنى ومن أمامه عربة النقل. لعل الرجل الشاحب بجوارها في البلكون كان "ألبرت". تساءلت ما إذا كان لا يزال يمتهن التدريس، ولكنه بالتأكيد تقاعد، بعد أن بلغ من العمر خمسًا وسبعين سنة. كان دائمًا ما يقول لها: "أنتِ حب حياتي، ولكنكِ ستتركينني، فما زلتِ صغيرة".

بعد انتهاء الفيلم ذلك اليوم، احتست "أنَّا" القهوة في ردهة السينما، ومن شدة الزحام، جلس "توماس" على الكرسي المجاور لها، هكذا التقيا.. "أنتِ حب حياتي"، ربما جاءت هذه الجملة على لسان أحد أبطال الفيلم. كثيرًا ما كان يردد "ألبرت" مثل تلك العبارات الرومانسية على مسامعها، ويتنبأ بما حدث بالفعل بعد ذلك، فقد تركَتْه.

ابتعدَت "أنَّا" عن موقع البناء وتخيَّلت "توماس" وهو يقول تلك العبارات: "أنتِ حب حياتي، ولكنكِ ستتركينني، فما زلتِ صغيرة".

بعد كل تلك السنوات التي مرَّا بها معًا، تستطيع أن تُشاركه ذكرياتها، لعلَّه هو الرجل الذي وقف في البلكون، ولكنها تخشى أن تسأله كي لا تضايقه عندما يعلم أنها لا تتذكَّر الرجل الذي كان معها ذلك اليوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

21

يدَّعي "توماس" أن "أنَّا" غازلته بلا استحياء، عندما تقابلا أول مرَّة، ولكنها تنفي ذلك، فيستدرك قائلًا:

- لقد غازلتِني بلباقة، فجُنِنت بكِ.

دائمًا ما تبتسم عندما يردد تلك الكلمات، وكأنها تحمي سِرَّها، ولكنهما لم يحكيا قصة لقائهما لأحد منذ فترة طويلة.

يتذكَّر "توماس" المواضيع التي تحدَّثا بها عن ظهر قلب، ولم ينسَ لكنتها، التي لم يقدر على مقاومتها. أما هي، فلم تفهم لكنته بسهولة، فقد كانت أكثر تعقيدًا من الآن، كما أنها لم تتمكن من سماعه جيدًا وهو يجلس بجوارها في ردهة السينما المُزدحمة والصاخبة. وبعد أن مضى في طريقه، سارت خلفه خِلسة، ووجهَّت الكاميرا إليه دون أن يدري، وحالما أدار رأسه كي يُلقي عليها نظرة أخيرة، ضغطت على الزر. ظلَّت هذه الصورة على حائط مدخل البيت أعوامًا مديدة، ولكنهما أنزلا جميع الصور من الحائط منذ فترة. تتذكَّر "أنَّا" جيدًا، كيف حكت لإحدى صديقاتها عن لقائها به، وعن ابتسامته الساحرة، التي أضاءت وجهه.

وقفت "أنَّا" أمام مبنى السينما. كان لا يزال مُغلقًا، فاقتربت من اللوح الزجاجي، ووضعت كفَّيها حول رأسها على الزجاج، كي تتمكن من النظر إلى تلك الردهة، التي بدت مختلفة عن ذي قبل، بسبب إعادة بنائها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

22

حالما استيقظت من النوم، سمعت صوت "توماس" وهو يترك المنزل. شربت كوبًا من الماء، وشعرت بالغثيان الذي ينتابها كل صباح، ولكنها صارت تعلم أنها ستصبح أفضل عندما تذهب إلى الكافيه، حيث تتناول إفطارها مع القهوة.

جلست في الكافيه دون أن تشرع في الكتابة. نظرت حولها إلى بقية الزبائن، الذين كانوا أيضًا غير مُنشغِلين. وبعد مرور بعض الوقت، بدؤوا العمل. هكذا استنتجت بعدما فتحوا أجهزة "اللاب توب" أمامهم. أما هي، فالدفتر الأزرق ينتظرها في الحقيبة.

تتوفر الجرائد الفرنسية في الكافيه، مما جعلها تعاود قراءتها بعد أعوام مديدة من الامتناع عنها. تظل هناك لمدة ساعتين، أو ساعتين ونصف الساعة، ثم تسلك في كل مرَّة طُرقًا جديدة للعودة إلى المنزل، حتى صارت - لا شعوريًّا - تتجنَّب الطرق المباشرة التي تألفها.

صارت لا ترسم خطة معينة للطريق الذي ستسلكه، بل تختار الشارع الذي يروقها عند بلوغ كل ناصية جديدة، فتتأمل المباني الجميلة، وقصاري الزهور عند النوافذ. وإن شعرت أنها تبتعد عن منزلها، تُصحِّح مسارها عند الناصية التالية، ولكنها كثيرًا ما تضلّ طريقها، ولا تتمكن من العودة سيرًا، فتضطر إلى ركوب المواصلات. وعندما تنزل في المحطة وتتجه إلى بيتها، تشعر وكأنها لم تعد تألف تلك الشوارع والطرق التي اعتادتها لسنوات. تحتار، هل تنعطف هنا، أم تستكمل السير في الاتجاه نفسه. حتى يداها لا تعرفان الطريق، فكل يد منهما تشير إلى اتِّجاه معاكس، ثم تسرعان إلى بعضهما، كي لا تظلّ كل منهما وحدها، فتمسكان ببعضهما أمام بطن "أنَّا"، وتتركان لها القرار.

في أحد الأيام ظلَّت تبحث عن المتجر الإيطالي، حتى أدركت عندما وجدته أنها مرَّت بجواره بالفعل دون أن تلحظ. أرسل إليها "توماس" رسالة يخبرها فيها بأنه سيعود مبكرًا إلى البيت، فاشترت بعض الخبز، والسجق، والزيتون، والطماطم.

وفي المنزل جلسا معًا أمام مائدة المطبخ ليتناولا وجبة مسائية خفيفة؛ هكذا يفعلان إن التقيا بالمنزل، ولم يرغبا في الطبخ أو الذهاب إلى أحد المطاعم. سألها "توماس":

- كيف حالكِ وقد صار لديكِ وقتٌ طويل للعزف على البيانو؟

أجابته:

- اكتشفت أنني أحتاج إلى أن أُعلِّم نفسي العزف من البداية، وأن أتدرَّب على السُلَّم الموسيقي.

ردَّت الزيتونة التي وضعتها في فمها إلى الصحن مرَّة أخرى، فمذاقها كان حامضًا بعض الشيء. نظرت إليه وهو يأكل الزيتون، مع قطعة من الخبز واللحم.

ضَحِك، لأنه اعتقد أنها تمزح. ثم سألها:

- وكيف حال الكتاب؟

فأجابت:

- لن أتمكن من كتابته بشكل جدِّي، إلا عندما أفرغ من تعليم نفسي أصول العزف.

أومأ براسه وأخذ الزيتونة التي ردَّتها إلى الصحن، ووضعها في فمه.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

23

كل بضعة أيام تُبلِّل "أنَّا" قطعة من الجلد، مخصصة لتنظيف البيانو. تفتح الغطاء وتبدأ بتنظيف المفاتيح السوداء أولًا، ثم البيضاء، بلُطف شديد، لدرجة أنها نادرًا ما تُصدر أي نغمة. تُثبِّت إصبع السبابة فوق قطعة القماش، وتُنظِّف المفاتيح من أعلى إلى أسفل. أما مع المفاتيح السوداء، فتستخدم ثلاث أصابع، حيث تُنظِّف النواحي الجانبية بإصبعي الإبهام والوُسطى. يبلغ عرض المفاتيح ذراعًا ونصف الذراع، ما يجعلها تشعر بالتعب، فتجلس على كرسي البيانو كي تستريح. تُذكِّر نفسها وهي مُتعبة أن البيانو لا يحتاج إلى كل هذا العناء، فهي لا تترك الغطاء مفتوحًا، ولا يمكن للتراب أن يتسلَّل إلى الداخل. كما أنه لا يتّسِخ بسبب أصابعها.

وبعد ذلك، تقف وتُغلق الغطاء، ثم تُبلِّل قطعة القماش مرَّة أخرى لتُنظِّفه. وبعدها، تدفع الكرسي إلى الخلف وتجلس على رُكبتيها كي تُنظِّف الدوَّاسة المعدنية بقطعة قماش من القطن.

يروق لها أن تعزف حافية القدمين، حيث توجد سجادة أسفل البيانو. في المعتاد، تخِّف برودة الدوَّاسة كلما استمرَّت في العزف، ولكنها قد ترتدي جوارب، إن كان الطقس شديد البرودة. وأحيانًا تعزف مقطوعات لا تحتاج إلى الدوَّاسة من الأساس.

لا تستوعب كيف يمكن لأحد أن يعزف على البيانو مُرتديًا حذاءه. فتلاميذها يخلعون أحذيتهم قبل العزف، كما أنها تنصحهم بالعزف حُفاة القدمين في البيت، بل وتشرح لزُملائها أن القدم الحافية تستطيع أن تشعر باللحن وتضغط على الدوَّاسة بشكل أفضل، كما أنها تستمتع ببرودة الدوَّاسة المعدنية أثناء العزف.

وفي النهاية، تُعيد الكرسي مرَّة أخرى أمام البيانو، ثم تغسل الأقمشة في الحمَّام وتتركها تجفُّ على حافة النافذة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

24

استلقت "أنَّا" على سريرها في غُرفتها المُظلمة وأسندت رأسها إلى الحائط مُنصتة إلى ضجيج أعمال الصيانة الذي تسلَّل عبر الحائط من المنزل المجاور. ثم جلست على طرف السرير، ووطئت على الأرض بأصابع قدمها أولًا، ثم بكعبيها. وبعدها، ذهبت إلى حجرة المعيشة، حيث عمَّ السكون. فالترام لا يعمل في منتصف الليل، وبالكاد توجد سيارات في الشارع. خطت قدماها على أرض الردهة، التي تصدر صوتًا صاخبًا، ثم دخلت المطبخ، حيث وجدت "توماس". قال لها:

- لا تُشعلي النور!

جلست على الكرسي المقابل له، ووضعت يديها على حجرها؛ اليُمنى فوق اليُسرى، فيما مسح هو بيده على فمه وذقنه، ثم أخذ نفسًا عميقًا، وسألها:

- منذ متى ونحن نقطن في هذا المنزل؟

أجابته، وهي تعلم أن إجابتها خاطئة:

- منذ خمس عشرة سنة.

فصحَّح لها المعلومة، قائلا:

- كلا! بل منذ عشرين سنة. كان عمرك ثلاثين.

أجابته:

- نعم، وأنت أيضًا.

استطرد قائلًا:

- عشرون سنة! ونحن نخرج من الباب نفسه إلى الشارع نفسه. ونستخدم الحمَّام نفسه. بعض الناس، ينتقلون من سكن لآخر كل سنتين.

قالت له:

- لا أعتقد أن الأمر يستحق كل هذا. ما الذي سيتغير، إذا انتقلت إلى سكن جديد، لتجد نفسك كل يوم تخرج إلى الشارع نفسه؟

سكت قليلًا، ثم قال:

- معكِ حق، لا شيء سيتغيَّر.

كان يجلس في مكان مظلم، أدار رأسه في اتِّجاه النافذة، قائلًا:

- إننا مُمِلُّون!

سألته:

- مُمِلُّون؟ لمَ تقول ذلك؟

نظرت إليه، بينما اعتدل في جلسته وأسند ذراعه على النافذة. وفجأة، رأت وجه فتاة شابة، ترمقها بنظرات السخرية والفضول. سألته:

- هل تريدنا أن نُغيِّر محل الإقامة؟

وقف "توماس"، ثم قال:

- لقد تأخر الوقت.

فقالت:

- نحن في منتصف الليل.

وجدته واقفًا أمام الفتاة. ربما تخيَّلت ذلك، ففي تلك الظُّلمة ليس من السهل أن تُفرِّق بين الجسم والظل. كرَّرت سؤالها مرَّة أخرى:

- قل لي، ماذا تريد؟

تركها، ولكنها لم تسمع صوت أرض الردهة، فربما تخطَّاها. وعندما خرجت من المطبخ، لم تجده.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

25

جلست "آنَّا" في الباص المتجه إلى حمَّام السباحة، تراقب المشهد خارج النافذة، في انتظار محطة النزول. لكنها شعرت أن الباص يسير في مناطق غريبة عليها، فهذه ليست الشوارع والمتاجر التي تألفها، وتمُرُّ بها على الأقل مرَّة واحدة كل أسبوع. أفاد الإعلان المسموع بالوصول إلى المحطة الأخيرة، فنزلت وأخذت تنظر من حولها. قررت أن تتمشَّى إلى حمَّام السباحة. ولكن الشارع العريض الذي مشت فيه، لم يُؤدِّ إلى الشارع الجانبي الذي توقَّعَته، بل إلى سور كبير. أرادت أن تدور حول سور ذلك المبنى؛ إنها كلية الطب، هكذا قرأت على اللافتة. لا بد أن الشارع الذي تبحث عنه على الناحية الأخرى. دارت حول المبنى، لتجد نفسها في مكان لا تعرفه. ولكنها ظنت أنها قريبة من ميدان كبير، ستتمكن عنده من إيجاد طريقها. ولكنها وصلت إلى ميدان غريب عنها، تحيطه كُتل خرسانية عالية. شعرت وكأنها صارت في مدينة "نانت". شعرت بالبرد الشديد، وبدا أنها الوحيدة التي شعرت به، فالسماء صافية، ولم يبدُ على المارَّة شعورهم بالبرد.

تركت المكان بخطوات سريعة، وحاولت أن تصل إلى أي منطقة تألفها. جلست في أقرب كافيه كي تهدأ، وتعيد رباطة جأشها. لم تلتفت إلى الموسيقى الصاخبة التي دوَّت بشكل لا يُحتمل من مُكبِّرات الصوت، إلا بعد مرور بعض الوقت. طلبت الشاي مع قطعة من الكيك، فالارتباك الذي اجتاحها جعلها تخشى أن تفقد الوعي.

عندما عادت إلى المنزل، وضعت المايوه الجاف داخل الدولاب، والمنشفة التي لم تستخدمها على الرَّف، وغطاء الرأس في الصندوق، الذي يحوي نظارة السباحة الخاصة بزوجها. ظلَّت تحت "الدُّش" الساخن فترة طويلة، ثم جفَّفت شعرها أمام المرآة، وأخذت الملقاط. رفعت ذقنها ومدَّتها إلى الأمام، كي تتمكن من نزع ثلاث شُعيرات صغيرة، دائمًا ما تنبت في ذقنها. وجدت نفسها أشبه بالوحش المفترس، بسبب هذه الذقن المقرفة. تألَّمت عند نزع الشعيرات لدرجة جعلت عينيها تدمعان، وبعدها، اختفى الوحش المفترس من أمام المرآة.

ذات يوم، وقفت مع "توماس" في الشارع، وشعرت بضوء شمس الأصيل على وجهها، أغلقت جفنيها، بينما نظر هو إليها، ثم مسح على ذقنها، وضحك قائلا:

- لديكِ شعرة!

رفعت يدها وشعرت بملمس شعرة قصيرة وثقيلة، فأدارت وجهها، وطلبت منه أن يستكملا الطريق.

استقلَّت "أنَّا" تاكسي كي تذهب إلى صديقتها، التي دعتها إليها كي تحتسيا النبيذ وتتسامرا.

تذوَّقت صديقتها الصلصة، ثم أضافت إليها بعض الملح، بينما راقبتها "أنَّا" قائلة:

- سأتوقف عن السباحة. لقد ذهبت اليوم إلى الكافيه، بدلًا من حمَّام السباحة.

قالت صديقتها:

- أتفهم ذلك كُليًّا، فعندما أنوي الحركة، أجدني أشعر بتعب كبير وثقيل وعميق.

رددت "أنَّا" كلمات صديقتها:

- كبير، وثقيل، وعميق؟

ضحكتا.

في طريق عودتها، وجدت متجر الزهور مُغلقًا. ولكنها لم تعد تكترث بوضع الزهور بجوار البيانو.

عندما سألتها صديقتها عن "توماس"، قالت لها:

- أعتقد أنني أعيش مع شبح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

26

قرابة وقت الغداء ذهبت "أنَّا" إلى مطعم صغير، حيث تناولت توست بالجبنة مع بعض السلطة. لم ترغب في العودة إلى المنزل، فطلبت القهوة، وأخذت تراقب الجالسين من حولها. كشفت بعض العلامات الصغيرة أنهم يستعدون للعودة إلى العمل. نظرت إلى أياديهم وهي تتحرك بتلقائية داخل الجيوب والحقائب، بحثًا عن التليفون المحمول - فهي تألف تلك الحركات التلقائية التي تصدُر من اليد، لأن العزف السليم على البيانو يتطلب يدًا مستقلة، تعزف من تلقاء نفسها - وبعدما تركوا المطعم، تباطأت خطواتهم، وانخفضت رؤوسهم، كي ينظروا إلى التليفون المحمولات. صارت هي الزبونة الوحيدة في المكان. نظرت إلى شعر النادل البُنيّ، الذي وقف خلف البار خافضًا رأسه، وتبيَّن من حركة ذراعه الأيمن، أنه يحمل التليفون المحمول هو الآخر. انتظرت قليلًا حتى يرفع رأسه، ولكنه لم يفعل، فأخذت النقود من المحفظة، وارتدت المعطف، ثم تركت مبلغًا من المال على البار، وقالت له:

- إليك الحساب!

قال لها:

- انتظري لحظة!

ولكنها استدارت وتركت المطعم.

عندما وصلت إلى المنزل كان "توماس" في المطبخ.

جلست وظهرها للبوتاجاز، كأنها تتَّكئ عليه. قال لها:

- أُلغِيَت مواعيدي اليوم.

أومأت برأسها، وسألته:

- هل تريدني أن أُعِدَّ لك القهوة؟

عندما وضعت الفنجان أمامه وسكبت القهوة، شكرها مُلامسًا ذراعها. لم تصدر منه تلك الإيماءة منذ زمن بعيد، لدرجة أنها صارت غريبة عنها. جلست على الكرسي المقابل له، وسألته:

- ألم تنم جيدًا؟

أومأ برأسه، ثم اتَّكأ على ظهر الكرسي، وأمسك بالتليفون المحمول، قائلًا:

- أستأذنك، لبضع دقائق.

قالت له:

- عندما تحمل التليفون المحمول هكذا، تُذكِّرني بتلاميذي.

فقال:

- إنه "سمارت فون".

ابتسم قليلًا، دون أن ينظر إليها.

نظرت إليه وهو ينقر على شاشة ذلك الجهاز الصغير، الذي يمتلئ بالصور والرسائل. لو أمكن لها أن تنحني إلى الأمام وتمد ذراعها كي تمسك به، فستجد فيه إجازات نهاية الأسبوع التي قضياها معًا، وأيام الفرح السالفة.. ستجد ما يستدعي اللوم، وما يمكن أن يُطمئنها.. ستجد أمانيها السعيدة، وأسماءً لأشخاص تُحبهم.. ستجد رقمًا محددًا، أو عنوانًا.. ستجد تلك الفتاة.

تحرَّكت أصابع "توماس" بسُرعة، وهو يكتب رسالة. رفعت بصرها إلى وجهه، ووجدت بشرته أسفل عينيه مُتعبة، يشوبها لون بُني بسبب عزوفه عن النوم لفترات طويلة. تعلم أنه يُحضر الفتاة إلى البيت بواسطة هذا التليفون المحمول. إنه حصان طروادة، الذي يحرص على حراسته دائمًا وأبدًا. وعندما ينعم بنوم هادئ وعميق، تفتح الفتاة الباب السري للبيت، وتستولى عليه في حِمى الظلام. رأت "أنَّا" وجه الفتاة أمامها، ترمقها بنظرات السخرية والفضول. قالت لنفسها إن "توماس" لن يصمد بلا نوم لفترة طويلة.

وقفت وأخذت الفنجان، ووضعته في الحوض، فقال لها:

- انتظري، لم يفرغ بعد.

اعتذرت، لأنها بدأت في غسله، فأشار بيده قائلًا:

- لا بأس! إنني حقًّا أُبالغ في شرب القهوة هذه الأيام.

سمعته من داخل غُرفتها وهو يترك المنزل. ارتدت الخُف وأشعلت النور في المدخل. كانت غُرفته مُغلقة.

لطالما أرادت أن تشتري قطة؛ تتناول وجبتين في اليوم، وتُقضي الصباح بجوار النافذة، مُنتظرة عودة أي منهما إلى البيت، ثم تبحث في الليل عن مكان مناسب للنوم، بعدما تجد الغُرفتين مُغلقتين.

عندما مشت في حجرة المعيشة، حرَّكت خطواتها كُتلة صغيرة من التراب، فقررت أن تعود مبكرًا، كي تكنس البيت.

قضت الصباح كعادتها في الكافيه، حيث احتست قهوتها، وتناولت ساندويتشًا خفيفًا. فتلك الفترة التي تقضيها هناك، هي الأقرب إلى قلبها.

هناك بعض الزبائن الدائمين، الذين يحرصون - بحكم العادة - على الوجود في الكافيه منذ الصباح الباكر. وبعد فترة، يُقبل على المكان زبائن آخرون، كي يتناولوا الطعام، أو يتحدثوا في أمر ما، أو يعملوا أمام „اللاب التوب". هؤلاء، يرحلون سريعًا بعدما ينتهون من الطعام والشراب، أما الزبائن الدائمون، فيمكثون فترة أطول.

في الصباح، دائمًا ما تسود أجواءٌ من الانسجام، يساهم فيها بقدر كبير طاقم العاملين في الكافيه. دوَّنت "أنَّا" في دفترها ملاحظات غير متعلقة بالكتاب، ثم طلبت فنجانًا ثانيًا من القهوة. ومع مرور الوقت، أصبح الكافيه أكثر ازدحامًا وصخبًا، وبطبيعة الحال، ازدادت حركة العاملين، بينما حافظ الزبائن الدائمون على هدوئهم، قبل أن يتركوا المكان تباعًا. أشارت "أنَّا" للنادل بيَدها طلبًا للحساب، ثم انحنت لتجلب حقيبتها من الأرض، وتفادت رجلًا مرَّ بجوارها وهي ترفع الحقيبة إليها، ثم استقامت في جلوسها، وصارت رأسها في مستوى بطن المارَّة من حولها. كذلك كانت رؤوس جميع الجالسين في الكافيه؛ في مستوى بطن المارَّة، فإذا انحنى أيٌّ منهم جانبًا، يمكن أن يُلامس شخصًا مارًّا، في بطنه، أو خصره، أو حتى مؤخرته.

بحثت عن محفظتها في الحقيبة، ووجدت موبايلها يُضيء، فقد اتصل بها "توماس" عدَّة مرَّات، وأرسل لها رسالة، طالبًا منها أن تعاود الاتصال به. اجتاحها القلق، وللحظة، بدر إلى ذهنها سيناريوهات، لا ثالث لهما: إما تغيير محل الإقامة، أو الطلاق. وفي اللحظة التالية، افترضت سيناريوهات أخرى: حادثًا، أو مستشفى، أو سرطانًا. أعادت التليفون المحمول إلى حقيبتها، وانتظرت تلك اللحظة حتى تمضي. وضعت يديها على طرف المائدة أمامها، وشعرت بشلل في أصابعها، وألم شديد في باطن كفَّيها. أخذت تُطمئِن نفسها، وتعيد ترتيب أفكارها؛ فإن أراد أن يُغيِّر

محل إقامتهما، لن يُخطرها بذلك عبر مكالمة هاتفية، ولن يرسل لها رسالة كهذه. أما إذا كانت المسألة تتعلق بالطلاق، فلن يتناول موضوعًا بهذا الحجم، إلا بتريُّث وهدوء، دون أن يطلب منها سرعة الاتصال به. وإن أصيب بالسرطان، فسينتظرها في المنزل كي يتحدث معها. أما إذا تعرَّض لحادث، فلن يرسل لها تلك الرسالة بنفسه، إلا إذا كان الحادث بسيطًا. إذًا، فلا داعي للقلق.

أخذت التليفون المحمول ونظرت إلى أظافرها الطويلة – مع العلم أنها لا تسمح لتلاميذها أن يُطيلوا أظافرهم مثلها - اتصلت به، وبدا صوته هادئًا ومُريحًا. شكرها على المكالمة، ولكنها صمتت، إذ لم يخطر ببالها ردٌّ مناسب. قال لها:

- أخي هنا، وسيقضي الليلة معنا. ما رأيكِ أن نتناول العشاء معًا؟ أين أنتِ؟

نظرت حولها، وقالت:

- في الطريق إلى البيت.

لم يعرف ماذا يقول، صمت للحظة، ثم اقترح عليها أحد المطاعم.

وصلت "أنَّا" إلى المطعم مُبكِّرًا، بينما أتى "توماس" في موعده، ثم جلس ووضع يديه على عينيه، وتنهَّد بعُمق. أخذت تُدَقِّق في رقبته، فقد بدأت تترهَّل، وحالما أبعد يديه عن عينيه، أبعدت عينيها عنه على الفور. سألها:

- كيف الأحوال؟

قالت:

- كيف الأحوال؟ الصيغة السليمة للسؤال هي: كيف حالكِ؟

أجابها:

- معكِ حق.

تنفَّس بصوت عالٍ، وسحب الملّاحة إليه.

جاء الأخ، واحتضن "توماس" قائلًا:

- تبدو وسيمًا.

لم تره "أنَّا" منذ فترة طويلة، فقد ازداد شعره شيبًا، قالت له ضاحكة:

- كيف حالك؟

سألها عن العام الإجازة وإن كانت تشعر بإعادة شبابها. أجابته:

- أشعر وكأنني لم أعد أنتمي إلى البالغين، ولكني بالتأكيد لا أنتمي إلى الشباب، ها أنا ذا أرقص على السُّلَّم.

ضحكت، فهي كثيرًا ما تضحك مع أخيه عندما يلتقيان. ولكنهما لا يلتقيان به إلا كل حين وحين. وكثيرًا ما ينشغلان عليه، بسبب تعرُّضه لنوبات من الاكتئاب، لذلك، يحرص "توماس" على مكالمته مرَّة في الأسبوع. قال "توماس":

- إن "أنَّا" مُنشغلة بتأليف كتاب تعليمي.

قالت "أنَّا":

- إنه يعلم ذلك.

تصرف الأخ وكأنه يعلم ذلك، كي لا يُحرجها.

بعد أن طلبوا الحساب، أخذ "توماس" يتحسَّس جيوب المعطف بحثًا عن المحفظة. تعرف "أنَّا" أنه يحتفظ بها في جيب البنطلون. قال الأخ:

- دعني أنا أدفع الحساب.

توقف "توماس" عن ملامسة المعطف، فيما نظر الأخ إلى الفاتورة، وأخذ من محفظته المبلغ المطلوب، وترك بقشيشًا كبيرًا، فقد أراد من الأساس أن يدعوهما على حسابه.

على الرغم من أنه الأخ الأكبر، فإنه دائمًا ما كان الأفقر. تذكَّرت "أنَّا" المياه الداكنة التي كانت تسري أسفل القارب الذي ركبته وهي طفلة صغيرة، حيث استلْقت على بطنها وأخذت تراقب المياه. وتذكَّرت أيضًا، كيف أن شعورها بالغثيان لم يخِفّ طوال اليوم. قالت:

- شكرًا لك. إنه كرمٌ كبيرٌ منك.

صرف الأمر بتلويحة من يده. جعله شعره الأشيب يبدو مغلوبًا على أمره.

عندما عادوا إلى المنزل، جلست "أنَّا" معه في المطبخ، بينما أحضر "توماس" وسادة وغطاء جديدين وفرشهما على الأريكة، التي ينام عليها. ثم انضم إليهما في المطبخ وتناولوا معًا كأسًا من النبيذ، ثم تبعوه بكأس آخر. نظرت "أنَّا" إلى النافذة الداكنة، ولم تهتم بالمواضيع التي تحدث بها الأخَوَان. أرادت فقط أن تنصت إلى أصواتهما المألوفة، وهي تتبادل أطراف الحديث، وتتداخل مع بعضها، فتسمع القول والقول الآخر، صوت الكلام وصوت الإنصات. لطالما تملَّكها شعورٌ عميق من الشجن، أرادت أن تحكي لهما عنه، فقد دام لسنوات، ولكنها لم تنبس بكلمة واحدة.

شعرت بحركة في المدخل، فألقت نظرة في اتِّجاه الباب، ولكنها لم تجد شيئًا. وقف الأخ، فيما ظلَّت هي ثابتة، أما "توماس" فبدا شاحبًا من التعب، أو ربما بسبب ظل المصباح. لم يستعجلا الوقت، فهما يعلمان أنه حالما يذهب الأخ إلى حجرة "توماس"، لن يجدا مفرًّا من النوم في الغرفة نفسها التي كانت ملكًا لهما معًا ذات يوم بعيد. قال الأخ:

- تُصبحان على خير.

ثم توَّجه إلى الحمَّام، بينما أخذت "أنَّا" الكؤوس من المائدة.

جلس الأخ على حافة الأريكة، وأسند ذراعيه على حِجره، ووضع يديه على ركبتيه. تمنت له "أنَّا" ليلة هنيئة، ولكنه لم يرُدّ السلام، فقد كان يُصلِّي.

أغلقت باب حجرته، ووجدت الفتاة واقفة في المطبخ، بعد أن رشفت من بواقي النبيذ، ثم نظرت إلى "أنَّا" وسط الظلام. ركضت "أنَّا" بسرعة إلى المدخل، وأطفأت النور، حتى عمَّ الظلام أرجاء المنزل، ولكن الفتاة ظلَّت واقفة، وكأنها طيفٌ أمام عينيها، أو وهمٌ يتلاشى من أمامها ببطء. تحسَّست "أنَّا" الحائط في اتِّجاه الحمَّام، وغسلت أسنانها في الظلام. وبعد ذلك، توجَّهت إلى غرفتها، حيث ارتطمت كتفها بالباب، ثم استلقت على طرف السرير بجوار الحائط. وبعد بضع دقائق، شعرت بشخص يتسلَّل إلى جوارها، دون أن يلمسها أو يُحدِّثها. هكذا استلقيا على السرير بجوار بعضهما. أرادت أن تقول شيئًا، مثل: "كيف حالك؟"، فإن أجابها، ستتأكد من أنه ليس شبحًا، وإن لم يُجِب، فستعلم أن الفتاة هي من يستلقي بجوارها. لم تجرؤ على مد ذراعها. شعرت بشح الهواء في رئتيها، ثم سمعت صوت أنفاسه، وأدركت أنه بجوارها؛ بشحمه ولحمه، وصدره، وبطنه، والدفء بين ساقيه، ورُكبته ذات الندبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

27

قضيا عدَّة أسابيع في فرنسا، وأثناء جولاتهما في جبال الألب، بدأت المشاكل الصحية التي عانى منها "توماس" في رُكبته. لم يذهبا معًا إلى باريس، لأن "أنَّا" دائمًا ما تقول: "إن قضاء الصيف في باريس إهدارٌ للوقت".

في طريقهما إلى الجنوب، وصلا إلى قرية صغيرة، ولم يجدا أنشطة يُمارسانها، فتوجَّها إلى مطعم صغير، وجلسا في حديقته تحت ظلال الأشجار، حيث ترجمت له قائمة الطعام. عندما قالت له الـ«Guanciale» - «خد الخنزير»، بدت وكأنها بربرية، ولكنها إحدى الأكلات الشهيرة في المنطقة. قرَّرا أن يتناولانها مع النبيذ الأبيض.

أخذ "توماس" يبحث عن قطع اللحم داخل الطاجن، إذ لم يسبق له أن تناول لحمًا رقيقًا كهذا، ثم صار يُداعبها ويُظهر علامات الفزع والاشمئزاز على وجهه بسبب تلك الوجبة. ضحكت بصخب على أدائه، ثم ربَّعت يديها بين صدرها وطرف المائدة، فمدَّ ذراعه إليها، وأمسك بيدها اليُمنى، ضاغطًا عليها بلُطف. دائمًا ما كان يخشى على يديها من أي مكروه.

بعد تناول فنجانين ثقيلين من القهوة، شعرا وكأنهما سكرانان. لدرجة أنه لم يتمكن من القيادة، قال لها:

- لا أريدكِ أن تلقي حتفكِ في يوم جميل كهذا.

تنزَّها حول البحيرة الصغيرة بجوار المطعم. تسلَّلت سحابة خفيفة من فوقهما، ولم تلتفت إليها «أنَّا»، إلى أن اختفت الزُّرقة من السماء. شعرت بثِقَل ساقيها وجفنيها؛ تزامن شعورها هذا مع تقلُّب الجو، إذ اختفى البريق واللمعان من حولهما. تتذكَّر جيدًا أن تلك اللحظات توالت في اليوم نفسه، على الرغم من أنها تبدو متفرقة عن بعضها، فهي تتذكَّر الخُضرة في المطعم، والسماء المنيرة، ومنظر البحيرة، ثم ثِقَل جفنيها، والعشب الذي يميل إلى الصفار والمياه النقية تحت السماء الكثيفة. ولكنها لا تتذكَّر من منهما تولَّى القيادة بعد ذلك، إلا أنها تستحضر صورة كلبٍ، كان يمشي بجوار الضفة، شعره بُني فاتح، مثل أعواد الذرة في الحقول، بعد الحصاد.

تغمَّدتها تلك الذكريات بسبب وضع جلوسها، فقد ربَّعت يديها بين صدرها وحافة المائدة، تمامًا مثلما جلست آنذاك وهي تتناول الـ"Guanciale" - "خد الخنزير".

أسندت ظهرها إلى الخلف، ووضعت يديها على حجرها؛ اليُمنى فوق اليُسرى. نظرت إلى الرجل الذي جلس في مقابلتها؛ حيث أشار إلى النادلة، وأخبرها أنه لن يدفع ثمن السلطة، لأنها ليست طازجة. أخذ يُشير إلى الصحن، بينما نظرت النادلة حولها، ثم قالت له:

- لا بد أن أرجع إلى المسؤولين في المطبخ.

أرادت أن تأخذ الصحن معها، ولكنه قال لها:

- لست معنيًّا بتلك التفاصيل، عليَّ أن أغادر الآن، أعطني الفاتورة!

أشار إلى الفاتورة في يدها، بينما نظرت هي حولها مرَّة أخرى، طلبًا للنجدة، ثم ذكرت مبلغًا ما، وبدا من حركة يدها أنها لا تريد أن تُعطيه الفاتورة، ولكنه أخذها منها على أي حال، ثم ترك بعض

المال على المائدة، وارتدى المعطف ورحل. أما المسكينة، صغيرة السن، فوقفت وحدها، تنظر إلى بواقي السلطة، التي ستتحمَّل ثمنها.

أخذت "أنَّا" دفتر الملاحظات من حقيبتها، وفتحته.

منذ بداية إجازة نهاية الأسبوع، والمطر مستمر بغزارة؛ فقد اجتاح المدينة بأسرها، والمدن الشرقية أيضًا، لدرجة أن الشوارع صارت شبه خالية. لم تشهد "أنَّا" مطرًا غزيرًا كهذا من قبل، فمثل ذلك المطر لا ينهال سوى مرَّة واحدة كل مائة عام. ولسوء الحظ، سافر "توماس" إلى إحدى المدن الشرقية في رحلة عمل، وهو الآن حبيسٌ بها، بعد أن غرقَت الطرق السريعة من طوفان الأمطار. اتصل بها بالأمس، كي يخطرها بعدم تمكُّنه من العودة، وأنه سيستغل فرصة بقائه ليعقد بعض الاجتماعات الإضافية، ولكنها عرفت من صوته أنه استأذن شخصًا ما كي يُجري تلك المكالمة السريعة، وأنه سيعود إليه فور إنهائها. سألها عن أحوالها، وعن روتينها اليومي، ولكن الاهتمام الذي بدر من صوته لم يكن موجهًا إليها، بل إلى الشخص الذي ينتظره. لا شك أن الفتاة قد رافقته في تلك الرحلة، ولذلك ستُفتِّش "أنَّا" عن الأدلَّة اللازمة فور عودته.

دخلت الكافيه سيدة، كانت – أو ربما ما زالت - تعمل مع "توماس". بدت وكأنها تبحث عن شخص ما، إذ أخذت تراقب الوجوه من حولها، بعد أن ناولت النادل مظلَّتها.

أما "توماس" والفتاة، فقد اختبآ معًا تحت مظلة كبيرة في تلك المدينة الشرقية.

نظرت "أنَّا" إلى السيدة، وتلاقت العينان للحظة، ولم تُبدِ الأخرى أي إيحاء لسابق معرفتهما.

جلس "توماس" والفتاة معًا تحت مظلة كبيرة لمطعم يطّل على ساحة السوق الفارغة، حيث تلاشت معالم المكان من حولهما من فرط تساقط الأمطار الداكنة. دخل "توماس" إلى المطعم كي يجلب زجاجتين من البيرة.

ستحاول "أنَّا" أن تعثر على أي فواتير، كي تتأكد من عدد المشاريب التي تناولها.

قالت الفتاة لـ"توماس":

- كم أتمنى أن نبقى هنا إلى الأبد، مع ضياع الإحساس بالمكان والزمان، في هذه المدينة الغريبة، تحت هذه الأمطار.

وقفت سيدة عجوز أمامهما، مجعدة الجبين. لم تحمل مظلة، ولكنها ربطت "إيشارب" حول شعرها. في البداية، تعجبت الفتاة، لأن العجوز بدت وكأنها لم يُصبها البلل، ولكنها سرعان ما اكتشفت أن أطراف تنوُّرتها داكنة، من فرط تعرضها لمياه الأمطار. سمحا لها أن تقرأ لهما الكف. ناولها "توماس" كفه وسند ذقنه بيده الأخرى، وأخذ ينصت إليها رافعًا حاجبيه. ثم جاء دور الفتاة، هكذا اختلست منه العجوز ثمنًا إضافيًّا.

ستتذكَّر الفتاة كلام العرَّافة لبعض الوقت، فقد سمعته في أجواء استثنائية، في يوم شهد أمطارًا لا تتكرر إلا كل مائة عام، وفي مطعم خلا من جميع البشر، إلا من ثلاثتهم. ولكنها سرعان ما ستنسى كل التفاصيل، لتتذكَّر فقط ما قالته لها بخصوص أبنائها المُستقبليين. هل من طريقة أخرى تلجأ إليها أي عرَّافة، كي تجذب اهتمام فتاة يافعة، ترمقها بنظرات السخرية، إلا إذا حدَّثتها عن أبنائها المُستقبليين؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

28

أغلقت "أنَّا" باب المنزل بإحكام، ووضعت حقيبتها على كرسي المدخل. نظرت إلى التليفون المحمول، ثم أعادته إلى جيب الحقيبة. لقد تعوَّدت على الضباب الذي تعاني منه في زاوية عينها، ولكنه كثيرًا ما يُخيفها. أحيانًا يتراءى لها وهي تُعلِّق المعطف، وكأن شيئًا ما قد عبر من خلال الباب، ليختفي في حجرة المعيشة. وأحيانًا تستدير ويُهيَّأ لها أن باب حجرة "توماس" انغلق فجأة – مع العلم أنه دائمًا مُغلق.

غسلت المواعين القليلة في المطبخ، ثم أغلقت مياه الحوض، وأمسكت بالصحن بيديها المُبتلتيْن، ونظرت وراءها، لتتأكد من مكان الكرسي أمام المائدة. ثم ذهبت إلى حجرة المعيشة، حيث وجدت جريدة بجوار الأريكة، على الأرض، ثم وقعت عيناها على الأرفف التي تحوي صناديق الصور؛ كان أحدها قد خرج من مكانه قليلًا، فدفعته إلى الداخل بقدمها، أو ربما تركته على وضعه، فقد صارت تترك الأشياء كما هي، إذ لم تعد تتذكَّر كيف كانت من الأساس.

وفي الحمَّام كثيرًا ما تندهش لأنها لا تضع فرشاة أسنانها داخل الكوب بجوار الحوض، بل فوق الغسَّالة، أو على حافة البانيو، أو بجوار حوض الغسيل في المطبخ.

دخلت غُرفتها واستلقت على سريرها، ثم سمعت "توماس" يعود إلى البيت ويذهب إلى الحمَّام، ثم إلى غُرفته. فقامت من السرير وذهبت إلى الحمَّام، ثم إلى المطبخ لتشرب كوبًا من الماء. وتوجَّهت بعد ذلك إلى ركن الملابس في المدخل، كي تفحص جيوبه.

دائمًا ما يحتفظ "توماس" بجميع الفواتير، حتى وإن كانت فاتورة أقراص استحلاب لعلاج السُّعال. لطالما حاولت أن تجعله يُلقي بالفواتير في أقرب سلَّة قمامة بعد خروجهما من أي متجر أو مطعم، ولكن ما إن يقترب من السلة، حتى يُعيد الفواتير إلى جيبه مرَّة أخرى، ويفِرَّ سريعًا بعدما تظهر على وجهه علامات الغضب، ثم يتباطأ ويقف، لينتظرها كي تلحق به.

دائمًا ما تملأ الفواتير جيوبه عن آخرها، ولذلك طلب من "أنَّا" أن تتولَّى تفريغ جيوبه وتنسيق الفواتير. وبالفعل، تتوجَّه مرَّة في الأسبوع إلى المطبخ بيديْن مُمتلئتيْن بالفواتير، وأوراق الملاحظات، وأغلفة أقراص الاستحلاب، كي تضعها أمامها على المائدة، وتُصنِّفها في ثلاثة أقسام؛ تضع على اليمين أوراق الملاحظات التي تحوي مواعيد بتواريخ قديمة، مع أغلفة أقراص الاستحلاب، والفواتير غير المهمة. أما في المنتصف، فتضع فواتير المطاعم، وعلى اليسار أوراق الملاحظات التي تحوي معلومات هامَّة.

وبعد ذلك، تُلقي بالكومة التي تتراكم على اليمين في سلَّة المهملات، وتعيد الملاحظات إلى جيب المعطف، ثم تأخذ فواتير المطعم في حجرتها، كي تعيد تصنيفها، ولكنها هذه المرَّة، ذهبت أولًا إلى المدخل، كي تأخذ دفتر الملاحظات من حقيبتها.

في المساء تنتظر الفتاة "توماس" بالقُرب من مكتبه، وأحيانًا يذهب هو إليها، فيسألها:

- ماذا أكلتِ اليوم؟

فتُجيبه، ضاحكة:

- لا شيء!

فيدللها قائلًا:

- إذًا، فلنأكل!

أخذت "أنَّا" تُنسِّق الفواتير طبقًا للتاريخ، فبعضها صدر في فترة الظهيرة، بالقُرب من مكتبه، وهي تشمل عديدًا من فناجين القهوة والشاي، بالإضافة إلى المياه المعدنية والبيرة؛ تلك هي فواتير الاجتماعات المُتوالية التي يُجريها بجوار المكتب، ولكنها وجدت فواتير أخرى – من نفس المكان – تشمل فنجانيْن من القهوة، أو شاي الياسمين؛ لعلَّه تناولهما وحده، أو برفقة شخص آخر. وجدت أيضًا فواتير لعديد من الوجبات، ما يعني أنها مقترنة بلقاءات أو اجتماعات خاصة بالعمل. وضعت كل تلك الفواتير في جيبه مرَّة أخرى كي يحصل بها على إعفاء ضريبي، أو يُعيد تحصيلها. أما عن وجباته التي تناولها مع الفتاة، فأخذت تسجِّلها في الدفتر، وبعد أن فرغت من فحصها في حجرتها طوال الليل، أعادتها إلى جيبه مرَّة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

29

تُرفرف الفتاة، فهي عصفورة، ذات جناحين رقيقيْن، وريش خفيف، وبعض الشعيرات الزَّاغبة، وخدَّيْن ناعمين. لا يمكن لأحد أن يمَلَّ النظر إليها، فهي تجذب الجميع بحيويتها. كثيرًا ما يقلق "توماس" على صحتها، فهي لا تتناول من الطعام إلا أقل القليل؛ نصف ساندويتش من الجبنة، أو كوب من الزبادي، أو تفاحة؛ أشياء بسيطة. يسألها عندما يلقاها في المساء:

- ماذا أكلتِ اليوم؟

فتضحك، قائلةً:

- لا شيء.

يُسعدها اهتمامه بها، وقلقه عليها، فهي تحب تلك اللهفة، ويروقها ذلك التوتر الذي يجتاحها قبل لقائه. لا تحب أن تقابله إلا ببطن فارغ، فالجوع هو السبب وراء توترها عند لقائه؛ وهي لا تريد أن تخِفَّ من حدَّة هذا التوتر. تحاول أن تتمالك نفسها، وأن تسيطر على حركات يديها وذراعيها ونفَسِها، كي لا تُرفرف، فهي كثيرة الضحك والمرح، لدرجة تُربك "توماس". فهو يظن أنه لا يواكب شبابها، ولكنها تعرف أنه إذا سايرها، سيصبح أكثر حيوية.

بعد تناول الطعام تهدأ الفتاة بعض الشيء، ويتسلَّل إليها الشعور ببعض الدفء والقليل من التعب. وفي تلك اللحظة، يتحرر "توماس" من إحساسه بالإرهاق، فلا يتوقف عن الحديث معها، والنظر إليها، فيما تتنهَّد هي مع نهاية ضحكاتها.. وكأنهما فارسان، سبق أحدهما الآخر، فأطلق الآخر العنان لحصانه كي يلحق بنظيره، إلى أن سارا بجوار بعضهما، وانغمسا معًا في الحديث. سألها:

- هل كنتِ تواظبين على ركوب الخيل في الصغر؟

تدلَّلت، وأظهرت علامات الاستياء على وجهها. فقال لها:

- احكي لي.

فقالت:

- وكأنك تتمنَّى لو كنت أصغر سنًّا.

فقال لها:

- ألا تدركين كم أنت صغيرة في السن؟

نظرت الفتاة إلى المنديل، وحرَّكته تجاه حافة المائدة. قال لها:

- دعينا نختم تلك الليلة ببعض النبيذ اللذيذ، في صحة الشباب.

وجدت "أنَّا" النبيذ في الفاتورة؛ بالتأكيد ثملت الفتاة، فقال لها "توماس":

- تعالي، سأوصلك إلى البيت، وإلى السرير.

عندما يقضي ليلته معها، يصل إلى البيت بعد منتصف الليل، بعدما تخلد الفتاة إلى النوم، حيث يلقي عليها نظرة قبل أن يتركها، وبالتأكيد يحسدها، لأنها تنعم بنوم عميق.

ارتدى ملابسه، ثم ذهب إلى حمَّامها، حيث غسل وجهه، ورتَّب شعره بيديه المُبتلتيْن، ثم جفَّف وجهه بفوطتها. وأثناء استدارته، ارتطم بكابينة الاستحمام في حمَّامها الضيق، فارتفعت ضوضاء صاخبة بسبب سقوط أشياء من البلاستيك والمعدن. لعن، ثم انتظر قليلًا بعدما هدأ الصخب. يعلم كيف

يُغلِق باب شقتها دون أن يُحدث أي ضجيج، ويعلم أيضًا كيف يفتح باب شقته دون أن يُحدث أي ضجيج، ولكن "أنَّا" تستيقظ من نومها، حالما تسمع صوت المفتاح في القفل. حتى وإن أغلق الباب بإحكام، فلن يمنع ذلك الفتاة من الدخول إلى البيت، فهي تتسلَّل إليه منذ فترة.

سمعته "أنَّا" وهو يتوجَّه إلى الحمَّام، ثم يغلق باب حجرته، ويتَّكئ عليه من الداخل. وبعدها، سمعت خطواته، ثم ثباته، ثم خطواته مرَّة أخرى. تعلم أنه فتح اللاب توب، ونظر إلى تليفونه المحمول.

إنه لا يعي أن "الفتاة" تخرج من شاشة تليفونه المحمول لتتسلَّل إلى البيت، ولكنها ضلَّت طريق عودتها بعد أن تركت منزلهما هذه المرَّة.

ربما حان الوقت كي تتحدَّث «أنَّا» مع «توماس» عن «الفتاة».

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

30

تحسَّست "أنَّا" ظهرها حتى لامست منطقة مُتصلِّبة في عمودها الفقري، اكتشفتها منذ أسبوع أو اثنين. لا تعلم إن كان هذا الورم الذي تشعر به ينمو أم لا. جلست على حافة البانيو، ووضعت ذراعها على جسدها العلوي. سمعت شخصًا يمشي في المنزل فخرجت من الحمَّام، وشعرت بهواء بارد يتسلَّل إلى المناطق المكشوفة من جسدها. وقفت عند عتبة المطبخ، وسألته:

- هل من الممكن أن تفحص شيئًا في جسدي؟

ترك "توماس" كوب الماء، واقترب من المائدة، ثم قال لها:

- اجلسي!

ربَّعت ذراعيها، بينما أسندت يديها على كتفيها، لتغطي منطقة الصدر. أرادت أن تخبره أنها ليست قلقة من شيء، ولكنها دخلت المطبخ، ثم جلست، بينما وقف هو خلفها، ثم قال:

- أريني الموضع الذي تقصدينه.

أزاحت قميصها الداخلي إلى أعلى، وأخذت تتحسَّس ظهرها، ثم قالت:

- هنا!

أزاح يدها، وأخذ يمسح على الجزء المُتصلِّب، من أعلى إلى أسفل، ومن أسفل إلى أعلى. ثم أخذ يضغط بلُطف، وقال:

- لا داعي للقلق!

ثم أنزل قميصها الداخلي إلى أسفل، وقال:

- من الواضح أنه خُرَّاج، يمكن أن تشُقِّيه بنفسك بعد عدَّة أيام.

شدَّت قميصها إلى أسفل، واستدارت. ابتعد "توماس" عنها وأمسك بكوب الماء، ثم أومأ برأسه كي يطمئنها، ولكنها هزَّت رأسها نافية، وتركت المطبخ. ذهبت إلى الحمَّام ووقفت بجوار النافذة العالية الضيِّقة، واتَّكأت على الحائط، حيث المدفأة بجوار ساقيها، فجلست القرفصاء، واستدارت كي تشعر بالدفء في ظهرها. نظرت إلى البلاط الأبيض ذي الحواف الكُحلية، ولاحظت آثار أقدام صغيرة على الغبار؛ إنها الفتاة، فقد أتت إلى هنا ووقفت أمام المرآة.

وقفت "أنَّا" في النقطة نفسها التي وقفت فيها الفتاة. تطلَّعت إلى شعرها وجفونها، وشفتيها، ورقبتها، وذراعيها، وفتحة صدرها. فقميصها مفتوح عند منطقة الإبط، ولكنه يغطي بطنها، والنسيج فضفاض، والحمَّالات سميكة.

عادت مرَّة أخرى إلى المطبخ، حيث جلس زوجها، ممسكًا بالتليفون المحمول. قالت له:

- "توماس"!

أظلم الشاشة، ثم نظر إليها. وقفت عند الباب وهي تعلم ماذا يرى، فقد بدأ هو أيضًا بوجهها، ثم نزل ببصره إلى رقبتها، فكتفيها، فذراعيها، وإبطيها، ثم نظر إلى حمَّالات القميص الذي يغطي صدرها وبطنها. لم تُظهِر لها مرآة الحمَّام الصغيرة أكثر من ذلك. استدارت، وذهبت إلى غُرفتها. أرادت أن تنام. وبينما كانت على حافة الحُلم، سمعت صوته وهو يترك المنزل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

31

فتحت الفتاة الباب، خطا "توماس" خطوة كبيرة، وألصق جسده بها. داعبته، وأبدت إعجابها باندفاعه وجنونه. أراد أن يراها عارية، ولكنها رفضت، فشدَّها نحوه، ثم حملها، وألقى بها على السرير. قالت له:

- انتظر، انتظر!

ضحكت وحاولت أن تُخلِّص نفسها من قبضته، ولكنه أمسكها بقوة، فشعرت بالإثارة. وكلما أفلت يديه كي يخلع لها ملابسها، حاولت أن تفلت منه، حتى قال لها:

- اثبتي!

وضع يده تحت رقبتها، وأخذ يُحرِّكها إلى أسفل. تذكَّرت أصابعه ملمس البشرة الناعمة، فبشرتها رقيقة ورطبة، وتنتفض عندما يُلامسها، تمامًا مثلما كانت تنتفض "أنَّا"، ولكنه سرعان ما شعر بالتعب، فاستلقى بجوارها، وأخذ يلهث بقوة، ما جعل الخمول يُصيب جسده بالكامل. حاول أن يلتقط أنفاسه، بينما أخذت هي تمسح بيدها على رأسه. استعذب شعوره وهو بجوارها، وقال لها:

- ما أجمل الموت بين أحضانكِ!

أغلق عينيه، وحاول أن يتنفس بعمق وانتظام، ثم ابتسم بصعوبة، بينما ضحكت هي ووضعت رأسها على صدره.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

32

يوم السبت هو أكثر أيام الأسبوع ازدحامًا على مدار العام، ولكن قُبيْل الاحتفالات بعيد الميلاد، يزداد زحامه بشكل ملحوظ. ما زالت "أنَّا" تواظب على الذهاب إلى الكافيه كل صباح، ولكنها تحاول هذه الأيام أن تصل مبكرًا قدر المستطاع، كي تفِرَّ سريعًا قبل تكدُّس الزوار.

يُعتبر تناول البيرة مع الإفطار أحد أهم طقوس أيام السبت في شهر ديسمبر، كما تشتهر تلك الأيام برنين الكؤوس والفناجين، وصليل السكاكين على الصحون البورسلين، وأصوات جر الكراسي من مكان إلى آخر. تجتمع تلك الأصوات، لتَبُثَّ نغمات منسجمة، تُذكِّرها بموسيقى الكنائس والابتهالات. وبعدما تسلَّلت تلك النغمات إلى أعماقها، شعرت بإلحاح يدفعها للخروج إلى الشارع.

عرفت من الراديو أن يوم الأحد، يوافق ثالث أيام عيد البشارة، فأخذت صندوقًا من المخزن، وجلست في حجرة المعيشة، حيث أخرجت من الصندوق بعض الزخارف الزجاجية، وكُرات زينة بلون الثلج، ثم أخذت تُشكِّل بعض الورق على هيئة كُرات صغيرة. نَسِيَت أن تشتري بعض فروع الصنوبر كي تعلِّق حولها تلك الزينة في فازة كبيرة مثل كل عام، كما نسِيَت أيضًا أن تضع التمثال الخشبي - الذي كان ملكًا لعائلة "توماس" - في حجرة المعيشة.

شعرت "أنَّا" بالحماس، لأنها ستسافر إلى فرنسا في وقت مبكر من الشهر. قال لها "توماس":

- أبلغي حماتي السلام، واعتذاري الشديد لعدم قُدرتي على السفر بسبب انشغالي.

قالت له:

- ولكنك لم تخطرني بسبب انشغالك؟

فقال:

- لأنكِ تعلمين.

استدار، وكأن الحوار قد انتهى، ولكنها صممت قائلة:

- كلَّا يا "توماس"، أنا لا أعلم سبب انشغالك.

فأجاب دون أن ينظر إليها:

- بسبب محاضراتي في معهد السينما، تعلمين يا "أنَّا".

ولكنها نفت ذلك، فنظر إليها سائلًا:

- ألا تدركين كمَّ العمل الذي يُثقِل كاهلي وحجم التزماتي المهنية؟

- ألا يسمحون لك بإجازات في معهد السينما؟

- عليَّ أن أهتمَّ بالمادة العلمية التي أقدِّمها للطلاب، فما الفائدة من سفري معكِ، إذا ظللتُ أعمل طوال الوقت؟

- لا فائدة على الإطلاق!

- كما أن الوقت قد تأخَّر، لن نجد حجوزات الآن على أي حال.

في اليوم التالي، استقلَّت "أنَّا" الطائرة إلى باريس، وركبت بعد ذلك القطار.

قالت لوالدتها:

- في الماضي، كنت شخصًا آخرَ؛ شخصًا يعرف طريقه جيدًا.

قالت الأم:
- هذا صحيح، لطالما كنتِ شخصًا مُنظَّمًا.
فقالت "أنَّا":
- اليوم في المطار، شعرت وكأنني شخصٌ متخلف! كنت ضائعة، لم أجد أي نافذة للاستعلامات، ولم أجد من يساعدني في شحن أمتعتي، ولم أتمكن من التعامل مع الأجهزة، إلى أن أقبل إليَّ أحد الموظفين، وقدَّم لي المساعدة بكل احتقار.
ضحكت الأم، وأومأت برأسها، لظنها أن ابنتها اختلقت تلك الأحداث على سبيل الدعابة. قالت لها، وهي تمسح على يدها اليُمنى:
- أنا أيضًا لم أعد أفهم اجراءات المطار، فالمشكلة ليست بكِ.
حجزت "أنَّا" حجرة في البنسيون نفسه الذي تمكث فيه منذ أن انتقلت والدتها إلى شقة صغيرة.
في أحد الأيام في فترة ما بعد الظهيرة، نامت الأم في حجرتها، فيما أخذت "أنَّا" تقرأ كتابًا وهي مُستلقية على الأريكة في حجرة المعيشة، وفجأة راحت في النوم، فسقطت يداها المُمسكتان بالكتاب على بطنها.
عندما كانت أمها تقطن بالمنزل الكبير، كانت "أنَّا" تنام - أثناء زياراتها - في حجرة مُتكدِّسة بالأثاث والعديد من الأغراض؛ مثل ماكينة الخياطة، والبيانو، الذي تعلَّمت عليه العزف. وهناك، كانت تنعم بنوم عميق وطويل.
في ذلك المنزل القديم، أعلنت الأم – أكثر من مرَّة - عن استعدادها لاستضافة أي أطفال يتعلمون العزف على البيانو، ولا يملكون واحدًا في بيتهم. نشرت الخبر بين الجيران، ولكن لم يُبدِ أحدٌ أي اهتمام بذلك العرض. فصارت مقتنعة أن الأغنياء فقط هم من يتعلمون العزف على البيانو، ويحرصون على اقتنائه قبل بدء التدريبات. أما "أنَّا" فلم تحصل على أول بيانو لها إلا بعد مرور عامين على تدريباتها؛ وكان مُستعملًا.
توجد على الرَّف المقابل للأريكة صورة لـ"أنَّا" وهي جالسة خلف هذا البيانو، وكأنها تعزف عليه، بينما يقف بجوارها والدها، وكأنه ينصت إلى عزفها. تنتشر الصور في كل أركان حجرة المعيشة؛ بعضها يعود إلى فترة طفولتها، وأكثرها إلى فترة شبابها. لا توجد أي صورة لوالدها بعدما تخطَّى الثلاثين، بينما توجد صور لـ"أنَّا"، تفوقه فيها بعشرة أعوام.
تعكس الصور ولاءنا للأحِبَّة، وتجعلنا نألف وجوههم. ولهذا السبب تحاصر الأم نفسها بالصور من كل اتجاه، أما "أنَّا"، فقد أنزلت كل الصور من حوائط بيتها منذ فترة.
على الرغم من أن "أنَّا" لم تحب الأثاث الداكن في غُرفة البيانو، وعلى الرغم من أنها كانت تنام على أريكة ضعيفة، فهي لطالما نعمت بنوم عميق وهادئ تحت سقف تلك الغُرفة.
قالت الأم:
- ابنتي العزيزة، هل يا ترى سَتَرَاكِ عيناي مرَّة أخرى؟
منذ أعوام وهي تُودِّعها بمثل تلك العبارات المُتشائمة، مهما حاولت "أنَّا" أن تمنعها من قولها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

33

في المساء، أخذت "أنَّا" تفرغ حقيبتها، ثم وضعت زجاجات النبيذ، التي صممت والدتها أن تعطيها إياها، في المطبخ. لقد نسِيَت أن توصل لها سلام "توماس"، ولكن والدتها لم تسأل عنه من الأساس. أو ربما نسِيَت "أنَّا" المواضيع التي تحدثا بها، فكثيرًا ما تتداخل المحادثات التي تُجريها بالألمانية مع تلك التي تُجريها بالفرنسية، فلا تتذكر مضمون أي منها.

وجدت الجريدة اليومية على المائدة، وبجوارها رسالة من "توماس"، يخطرها بعودته في العاشرة مساءً. كان المنزل منظمًا ومرتبًا. فتحت بابِ حجرتها على مصراعيه - إلى أن ارتطم بالحائط - كي يتسلَّل النور إلى الداخل. وجدت سريرها مُنظَّمًا، والغطاء مطويًّا جيدًا تحت المرتبة. ولكنها منذ زمن بعيد، لم تعد تطوي الغطاء هكذا، فهي تبْسُطُه فوق المرتبة لتتدلَّى أطرافه من جوانب الفراش. تساءلت، ما إذا كانت الفتاة هي من طوت الغطاء هكذا. فتح "توماس" باب المنزل، وسمعته يقول من المدخل:

- عودًا حميدًا، أهلًا وسهلًا بكِ!

سمعته وهو يغلق باب الحمَّام دون أن يغلق الترباس، على عكس والدتها، التي تحرص على غلقه عند دخولها الحمَّام في كل مرة، ما يجعل "أنَّا" تسخر منها، ولكنها تقلق عليها، إذ تخشى أن تتعرَّض لأزمة قلبية أو تفقد وعيَها داخل الحمَّام، فيعوق الباب المُغلق بالترباس عن إنقاذها، ولكنها سرعان ما تُبعد تلك الأفكار عن ذهنها، وتُذكِّر نفسها، أن أمها تعيش وحدها على أي حال.

سمعت صوت السيفون، ثم خطواته التي توجَّهت إلى المطبخ. ذهبت إليه، ووجدته يحمل إحدى زجاجات النبيذ، ويفحص لافتتها. قال لها:

- فلنشرب معًا!

فتح الزجاجة، وصب النبيذ في كأسين. جلست أمام المائدة، فقال لها:

- دعينا نجلس هناك.

وضع ذراعه حول كتفها، وقال:

- احكِ لي.

قالت له:

- حماتك ترسل لك السلام.

سألها:

- كيف حالها؟

- صارت كثيرة النسيان وقليلة التركيز. مضَيْت وقتًا طويلًا أنسِّق الفواتير والأوراق وأسدِّد بعض الفواتير والرسوم، فلم يعد لها أصدقاء.

- لماذا؟

- لأنهم ماتوا جميعًا.

رنَّ التليفون في حجرة المعيشة، فسحب الفيشة، وعاد إليها.

- ألا تريد أن ترد على المكالمة؟

تجاهل السؤال، وقال:
- ماذا عن فرنسا؟ كيف حال فرنسا؟
- تنتشر الإجراءات الأمنية في كل مكان، لدرجة أن حقائب المارَّة في الشارع لا تسلم من التفتيش.
- عليَّ أن أُطبِّق مثل تلك الإجراءات الأمنية في المهرجان.
- هناك، صاروا لا يتحدثون إلا عن الحوادث الإرهابية، يسألون بعضهم: „هل سمعت عن آخر حادث إرهابي يا ميسيو؟“
قال لها:
- مدام!
ذكَّرتها لكنتُه بشيء ما، ولكنها لم تستحضر صورة معينة. صرفت نظرها عنه، ونظرت إلى باب حجرتها، فتذكَّرت سريرها. سألته:
- كيف قضَيْت الأيام الماضية؟
- ظللت أعمل طوال الوقت، كنت أخرج فقط كي أتناول الطعام. وبالأمس، قابلت „فرانز“، إنه يرسل لكِ السلام.
- لا أقدر على فتح عينيَّ.
- حسنًا إذًا، سأستكمل العمل.
خرجت من الحمَّام ووجدته جالسًا أمام المكتب، حيث الكمبيوتر وبعض الكتب والأغراض السينمائية، ومعه كأس النبيذ.
وفي حجرتها، حاولت أن تسحب الغطاء من تحت المرتبة، ولكنه كان محُكمًا، فتركته وجلست على حافة السرير. أرادت أن تنادي عليه كي يساعدها، ولكنه إذا جاء، ستسأله: "من طوى الغطاء هكذا على سريري؟".
أرادت أن تبكي. وضعت يديها على عينيها الجافتين، ولكنها لم تذرف دمعة واحدة.
وأخيرًا، سحبت جزءًا من الغطاء، يكفي كي تتسلَّل من أسفله، وراحت في النوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

34

في مساء اليوم التالي استيقظت "أنَّا"، وبدأت في تفريغ جيوب "توماس". تبيَّن لها أنه تناول الطعام وحده بضع مرَّات، فمثلًا، احتسى الشوربة مع زجاجة بيرة صغيرة في المطعم الفيتنامي المجاور لهما. كما وجدت فاتورة لعدَّة زجاجات من البيرة وساندويتش من السجق في أحد البارات، وفاتورتين من مطعم "تراتوريا" - على بُعد عشرين دقيقة على الأكثر من بيتهما - حيث ذهب "توماس" وحده في المرَّة الأولى بعد سفرها ببضع ساعات، وطلب طبق اليوم والقهوة، مع زجاجة مياه معدنية. أمَّا عن المرَّة الثانية، فكانت قبل عودتها بثلاثة أيام، لم يكن وحده، بل مع الفتاة، حيث طلب طبق اليوم، بينما طلبت هي لحم الخروف، بضِعف الثمن. قال لها:

- لا أعتقد أنك ستُكملين الصحن، أليس من الأفضل أن تطلبي شيئًا آخرَ؟

فقالت:

- سأدفع لنفسي.

فغضب قائلًا:

- لم أقصد ذلك!

دائمًا ما كانت الدورة الشهرية تجعل "أنَّا" تشتهي اللحم الأحمر، وكان "توماس" يفرح عندما يعود إلى البيت ليجد الستيك في انتظاره.

احتست "الفتاة" النبيذ الأحمر مع وجبتها، وكان مذاقه رائعًا. إنه أساسًا ذوق "أنَّا" في النبيذ، واقتبسه "توماس" منها، ليقدمه على طبق من ذهب إلى الفتاة، التي صارت تشاركها عشقها للنبيذ الفرنسي.

عندما دعا "توماس" "أنَّا" إلى بيته أول مرَّة، اشترى نبيذ "ميرلوت"، وكان مذاقه بشعًا، ما جعلها تحضر معها زجاجة على ذوقها في زيارتها التالية، ومن هنا، أخذ ذوقه في النبيذ يتحسَّن شيئًا فشيئًا، بعدما تعوَّد بسببها على مذاق النبيذ الجيد. وها هي الفتاة الآن تطلب بعد الطعام زجاجة "جرابا"، تضاهي طبق اليوم ثمنًا، وبالتأكيد دفع هو الحساب.

حكت له الفتاة عن أيام العطلة التي قضتها مع عائلتها. تُرى ماذا تحكي لهم عن "توماس"؟ فوالدتها في عُمر "أنَّا"، وبالتأكيد هي التي علمتها كيف تطوي الغطاء تحت المرتبة.

سألت "أنَّا" صديقتها:

- هل تعتقدين أننا مع تقدم العُمر نعود بعفوية إلى بعض عاداتنا القديمة؟

- لا أعلم.

- منذ عشرين سنة، أو أكثر، كنت أطوي الغطاء تحت المرتبة بطريقة معينة. والآن، بعد مرور كل تلك السنوات، اكتشفت فجأة أنني عُدتُ إلى تلك الطريقة، دون أن أعي ذلك. فهل هذا طبيعي؟ صرت أشعر بالفزع عندما أكتشف أنني أقوم بأشياء دون وعي.

- لا تقلقي، فأنا أيضًا صرت أكرر حركات والدتي وعاداتها يومًا بعد يوم، دون أن أعي ذلك. صارت تصدر مني تصرفات جديدة عليَّ. التقدم في العُمر أمرٌ مُرعب يا "أنَّا".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

35

في طريقها إلى الكافيه، خفَّت حدَّة شعورها بالغثيان. شعرت بجوع شديد، فطلبت ساندويتش من السجق. وحالما أنهت الطعام، دفعت الحساب. شعرت بإلحاح يدفعها كي تترك المكان، وتسير. فأخذت تمشي بإيقاع معين؛ خطوتين صغيرتين، فخطوة كبيرة، خطوتين صغيرتين، فخطوة كبيرة. ومع مرور الوقت، صارت خطواتها أكثر نهمًا؛ تلتهم الطريق الذي تمضي فيه.

لم تنظر إلا أمامها وتحت قدميها، كي تتفادى أي عقبات، هكذا أخذت تُحرِّك رأسها لتنظر إلى الأرض من تحتها وإلى الطريق من أمامها. إذا ما وجدت إشارة مرور حمراء، تأخذ منعطفًا جديدًا كي لا تتوقف، ولكن إلى أين؟ كانت وجهتها هي آخر ما يشغل بالها.

خطوتان صغيرتان، فخطوة كبيرة، خطوتان صغيرتان، فخطوة كبيرة. وأثناء مرورها ببعض الشوارع الحيوية، ترفع بصرها، فتلاحظ أنها لا تألف تلك الأماكن.

وقف رجل خلف نافذة إحدى الشقق بالطابق الأرضي ينظر إلى الشارع.

خطوتان صغيرتان، فخطوة كبيرة. أرادت أن تستمر إلى أن تفقد إيقاع خطواتها، فالقطار لا بد أن يهدأ ويقف في وقت ما. ولكنها لا تزال مستمرة، ولا تعلم متى ستتوقف.

عندما فقدت الإيقاع، توقفت، ونظرت حولها. بحثت عن دكَّة أو سور صغير كي تجلس، وتعيد ترتيب أفكارها، وتطمئن على قدميها.

في الماضي، عندما كانت تواظب على ارتداء الأحذية ذات الكعب العالي، كانت تشعر بحُرقة في ساقيها.

في اليوم التالي، قررت أن تأخذ قسطًا من الراحة، ولكن سرعان ما اجتاحها ذلك الإلحاح، الذي يدفعها كي تخرج وتستمر في المشي بإيقاعها المُعتاد؛ خطوتين صغيرتين، فخطوة كبيرة، خطوتين صغيرتين، فخطوة كبيرة. لم تكترث بانتشار الإصابات والدمامل في كعبَيْها. صارت تُفرِّق بين النزيف ولزوجة الدمامل. اشترت بلاستر، واكتشفت أنه يتوفر بعدَّة أنواع للمواضع المختلفة. كما اكتشفت أن الإصابات الرطبة أو الدمامل، تذوب عندما نغطيها بالبلاستر أثناء النوم. وبعد السير لمدة ساعة ونصف الساعة، شعرت بألم شديد في كتفها اليُمنى، سرعان ما تسلَّل إلى القفص الصدري والجهاز العضلي، ولكنها ظنَّت أنه سيزول حالما تعتاد المشي.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

36

واظبت "أنَّا" على المشي كل يوم، وصارت لا ترتدي إلا الأحذية الرياضية. وعلى أي حال، فهي لم تعد ترتدي التنوُّرات والفساتين والبلوزات، فقط القمصان والكنزات. حتى حقيبة يدها، استبدلت بها حقيبة الظهر. وفي الكافيه، أصبحت تتناول بيضة مسلوقة مع ساندويتش السجق على الإفطار، ثم تدفع الحساب بعد القهوة الثانية، كي تبدأ صولاتها وجولاتها.

غيَّرت إيقاع خطواتها؛ ثلاث خطوات صغيرة، فخطوتان كبيرتان، ثلاث خطوات صغيرة، فخطوتان كبيرتان. وصلت إلى طريق طويل، مرتفع وشديد الانحدار، ولكنها مضت قُدمًا؛ ثلاث خطوات صغيرة، فخطوتان كبيرتان، ثلاث خطوات صغيرة، فخطوتان كبيرتان. وبعد فترة، تباطأت خطواتها، ولكنها ثابرت، حتى وصلت إلى سطح مُستوٍ أعلى الهضبة. وهناك، اكتشفت أنها بلغت جانبًا من المدينة غريبًا عنها تمامًا تسوده سلسلة من التلال. صارت تذهب إلى تلك المنطقة كل يوم، لتمشي فوق المنحدرات صعودًا وهبوطًا، وتتبع تلك الطرق الصغيرة التي تؤدي إلى السماء، إلى أن تنحدر بها إلى أسفل، لتصعد بها – بعد ذلك - مرَّة أخرى إلى أعلى؛ بين التلال.

في يوم خريفي، اختبأت فيه الشمس خلف الشبورة، مرَّت "أنَّا" بجوار رجل، يتحدث عبر التليفون المحمول باللغة العربية. استدارت، وتباطأت خطواتها، ولكنها مضت قدمًا محافظة على إيقاعها. حاولت أن تسافر بخيالها من أرض الواقع، حيث الشمس الضبابية من فوقها، والربوة من تحتها، والرجل بجوارها. تمنَّت لو أخذت هذا المكان في جُعبتها، وسافرت به إلى الماضي؛ إلى باريس، فتمكث به، وتظل تستكشفه طيلة حياتها.

فاقت من فانتازيا المكان والزمان هذه، وعادت إلى أرض الواقع. سارت بانتظام؛ ثلاث خطوات صغيرة، فخطوتان كبيرتان، ثلاث خطوات صغيرة، فخطوتان كبيرتان. ما زالت السماء خلف الضباب، ولكن صوت الرجل تلاشى، لتسمع بدلًا منه ضجيج الأطفال، وكأنه يُدَوِّي من فناء إحدى المدارس. استكملت سيرها في ذلك الطريق الذي يطل على السماء، وينحدر إلى أسفل، حتى وصلت إلى حافة التلال، لتجد نفسها واقفة فوق جسر أخضر.

شعرت باللغة الأقرب إليها وهي تنساب إلى مسامعها، حيث سمعت ثلاثة أشخاص يتحدثون بالفرنسية، فظنت أن فانتازيا المكان والزمان اجتاحتها مجددًا، ولكنها سرعان ما تأكدت من رسوخها على أرض الواقع، عندما مروا من جوارها، ليسيروا على الجسر من أمامها. وقعت عيناها على شاب يافع، يفوق والديه طولًا، ويتمشَّى معهما في أنحاء المدينة التي يعيش فيها، بعد أن قدما لزيارته من باريس. استشعرَت مدى رضاهما عنه وفخرهما به، وقد حقق ذاته في بلد غريب. لاحظ الشاب الوسيم نظراتها إليه، واستدار في منتصف الجسر مشيرًا بيده كي يلحق به والداه، ثم مدَّ ذراعه لوالدته كي تتَّكئ عليه أثناء السير.

بحثت "أنَّا" عن محطة مترو كي تعود إلى بيتها. أخذت تتذكَّر أحياء المدينة، التي تنتشر فيها اللغة الفرنسية؛ مثل حي السفارة.

يصعب عليها فهم اللغة الدَّارجة هنا في منطقة التلال، ولم تهتم بمعرفة ما إذا كانوا يتحدثون إحدى اللهجات الألمانية، أم لغة أخرى.

لقد تفاجأت بالفرنسية التي تسللت إلى أذنيها، فقد كانت حقًا مفاجأة سارَّة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

37

في المساء عمَّ السكون أرجاء البيت. تنقَّلت "أنَّا" في أرجائه بعض الوقت، ثم وقفت أمام البيانو. فتحت الغطاء، ومرَّت بأصابع يدها اليُمنى على المفاتيح، لتتبعها أصابع اليد اليُسرى بحكم العادة. وردت ببالها النغمات الأولى لإحدى السوناتا، وأمُلَت أن تتذكَّر يداها بقية اللحن. جلست على الكرسي، وأخذت أصابعها تتحرك بشكل فُجائي، وكأنها عرائس ماريونيت.

لن يعود "توماس" إلى البيت هذه الليلة، فقد سمعته منذ يومين يتحدث عبر التليفون المحمول، ويتحرك داخل حجرته هنا وهناك، ثم ذهب إليها في حجرة المعيشة، وأنهى المكالمة، قائلًا:

- حسنًا يا "أرمن"!

ثم قال لها:

- سأسافر غدًا لأقابل "أرمن مايستر"، وإذا سارت المحادثات بيننا على ما يُرام، سأظل هناك يومًا إضافيًّا.

لطالما كانت يدها اليُسرى الأكثر عنادًا، وها هي الآن صارت أبطأ من ذي قبل. نظرت إليها وهي تضعها على حجرها. أما اليد اليُمنى، التي طالما كانت الأكثر طاعة، فلم تتذكَّر بقية اللحن، وانسحبت إلى حجرها هي الأخرى.

كان "توماس" قد سألها وهو يجهِّز حقيبته:

- أين حذائي الرياضي؟

أجابته:

- لا أعلم.

ذهبت إلى الحمَّام، ولاحظت أنه أخذ معه ماكينة الحلاقة، والرغوة، والفرشاة، على الرغم من أن رحلته هذه لن تستغرق سوى يومين على الأكثر.

بعد الاجتماع دعا "أرمن مايستر" كلًّا من "توماس" و"الفتاة" على العشاء؛ لن تجد "أنَّا" فاتورة لتلك السهرة. أنصتت الفتاة إلى أطراف الحوار جيدًا، وألقت أسئلة ذكية. كانت خفيفة الظل؛ لطَّفت الأجواء بضحكاتها، وجعلتها أكثر أريحية. ترك "أرمن مايستر" المائدة بضع دقائق، فأمسك "توماس" بيدها، بينما أهدته ابتسامة، وكذا فعلت عندما عاد إليهما "أرمن مايستر"، إذ أهدته ابتسامة هو الآخر؛ فابتساماتها مثل الهدايا. جلست في وضع مُثير، حيث أسندت ذراعيها على المائدة وفردت ظهرها.

منذ عدَّة أعوام جلست "أنَّا" في حجرة الانتظار التابعة لإحدى العيادات، ثم رفعت بصرها بعفوية عن الكتاب بين يديها، لتجد نفسها تنظر إلى مرآة، وترى امرأة مُنهكة وهزيلة، تجلس في وضع دفاعي، حيث دفعت صدرها إلى الأمام، وسحبت كتفيها إلى الوراء. وعلى الفور، أبعدت عينيها عن المرآة، وغيَّرت من وضعية جلوسها.

في الـ"كونسرفاتوار" - أكاديمية الفنون، دائمًا ما كان يقول لها مدرس البيانو، وهو يخبط على ذراعها:

- استرخي، أرخي جسدك.

كانت تحرَّك ذراعها كي تتجنّب مُلامسته لها، فيضحك استخفافًا بحساسيتها، التي يُرجعها إلى جنسيتها الفرنسية. أما هو، فكان من المجر.

منذ اللقاء الأول، لم يستلطفا بعضهما بعضًا. دائمًا ما كان يقول لها:

- إن أردتِ أن تحترفين العزف، فعليكِ أن تسترخي.

وها هي اليوم تتذكَّر كلماته هذه، وتدرك ازدواجية معناها، حتى وإن لم يقصدها.

منذ ذلك اليوم، بعد أن تطلعت إلى نفسها في المرآة، واظبت على السباحة مرَّة في الأسبوع على الأقل. كما قررت أن تهتم بوضع جلوس تلاميذها أمام البيانو، وأن تبدأ بنفسها وتتوقف عن رفع كتفيها أثناء العزف.

نظرت إلى يديها على حجرها، فقد نسيا كل شيء.

ذات مرَّة قال لها شخصٌ ما، أنها تُربِّع ذراعيها أعلى جسدها وتضع يديها على صدرها أثناء النوم.

أرادت أن تستيقظ مبكرًا في اليوم التالي، إذ اقترحت صديقتها أن يذهبا معًا إلى السينما في المساء، حيث يُعرض فيلم قديم، نَسِيَت عنوانه.

أغلقت غطاء البيانو بيديها عديمتي الفائدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

38

في وقت متأخر من ليلة الأحد، سلك "توماس" والفتاة طريق العودة، ولكنها نامت على المقعد المجاور له بالسيارة. كاد الطريق يخلو من حركة المرور، ما جعله يقود السيارة على سرعة مائة وثلاثين. حرص على متابعة مؤشر السرعة أمامه، وبعد أن تجاوز مائة وأربعين، شعر برهبة قدمه اليُمنى أثناء القيادة، وأخذ يقلل من ضغطها على دوَّاسة البنزين. أما عن قدمه اليُسرى، فظلت بجوار الدوَّاستين، تترقَّب صعود السيارة أعلى التل. كانت قدماه منتبهتين تمامًا مثل يداه، فيده اليُسرى أمسكت بعجلة القيادة، فيما استقرت اليُمنى على حجره في وضع الاستعداد كي تمسك بالذراع ناقل الحركة. شعر ببعض الشد العضلي، امتد من خلف رقبته حتى ظهره، ولكنه كان مُحتملًا ولم يصل إلى درجة الألم. سبق سيارة أخرى، ثم لامست يده اليُسرى زر مصابيح السيارة دون أن تترك عجلة القيادة، ثم انضمَّت إليها يده اليُمنى أيضًا، فيما ضغطت قدمه على دواسة البنزين. نظر إلى السيارة التي سبقها في المرآة، حيث بدت وكأنها ثابتة، بلا حراك. صار وحده في ذلك الشارع، الذي بدا مثل الأنفاق بسبب تكدُّس الأشجار على جانبيه. وأخيرًا، وصل إلى أرض مسطحة، وعلم أنه اقترب من فيينا، حالما مر بجوار مراكز التسوق، حيث بدت مواقف السيارات الخالية، وكأنها حقل واسع. أخذ الأفق يقترب شيئًا فشيئًا. وبعد أن اجتاز حدود المدينة، سار على سرعة ثمانين، ثم تباطأ إلى ستين، حتى وصل إلى قلب فيينا، ولم يتجاوز الخمسين.

لم توجد سيارات أخرى في الشارع، فأخذ يسير في زقاق ضيق على سُرعة ثلاثين دون الحاجة إلى الاستعانة بضوء مصابيح السيارة. وأخيرًا، وجد مكانًا كي يركن السيارة أمام مدخل البيت مباشرة، ثم أبطل الموتور، وحاول أن يتحقق من النور في حجرة "أنَّا".

استيقظت الفتاة، ومدَّت ذراعيها إلى الأمام بالقُرب من النافذة الأمامية، ثم نظرت من النافذة الجانبية، سائلةً:

- أين نحن؟

أدار الموتور مرَّة أخرى؛ ليترك المكان الذي ركن فيه السيارة، وهو يعلم أنه لن يجده عندما يعود. قال لها:

- سأوصلك إلى البيت.

أخذت الفتاة تحرَّك رأسها هنا وهناك، تراقب الشارع بانتباه من خلال النوافذ الأمامية والجانبية.

أخذ "توماس" مُنعطفًا خاطئًا ولاحظ أنه يقود في اتِّجاه عكسي عندما وجد سيارة أمامه؛ فعاد إلى الوراء، ثم استكمل طريقه. لم يجد مكانًا خاليًا ليوقف السيارة في الشارع الذي تقطن به الفتاة.

قالت له:

- لا بأس.

احتضنته، وطلبت منه أن يفتح الصندوق الخلفي، كي تأخذ حقيبتها، ثم نزلت من السيارة، واختفت داخل المبنى حاملة إياها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

39

قالت الفتاة لصديقتها:

- سمَّيتُها "امرأة" بلا اسم محدد. كلما مكث عندها لوقت أطول، زاد فضولي عنها. ذات مرَّة، جلست ربع ساعة في المطبخ، بينما كان يستحمُّ. وجدت تليفونه المحمول أمامي على المائدة. أعلم كلمة السر، فقد اختلست النظر ذات مرَّة، بل عدَّة مرَّات، بينما كان ينقرها. لقد هيَّأت لنفسي الطريق. صحيح أنني لم أمضِ فيه، ولكني هيَّأته لنفسي.

أخذت الفتاة تنصت إلى خرير المياه في الحمَّام، إلى أن أغلقها. اقترب موعد خروجه من الحمَّام ودخوله إلى المطبخ، ولكنها ظلت تنظر إلى التليفون المحمول على المائدة. وأخيرًا، أمسكت به، ولكنها لم تُدخل كلمة السر، التي تحفظها عن ظهر قلب، بل فقط نقرت على الزر الجانبي لتُضيء الشاشة، وتنظر إلى الساعة، فاكتشفت أنها ظلت في حيرة من أمرها أمام التليفون المحمول لمدة ربع ساعة.

قالت لها صديقتها:

- لو كنت مكانك، لتصرفت بطريقة مُغايرة تمامًا. كنت سأدخل إلى بيته، فربما تسعد تلك "المرأة" برؤيتك.

تذكَّرت الفتاة جنون صديقتها هذه، فمنذ عدَّة أعوام قذفت رجلًا بأغراض المطبخ، وأصابت كتفه بفنجان. ضحكت، قائلة:

- تخيلي لو حدث ذلك!

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

40

عندما تُعرِّف "أنَّا" بنفسها، تنطق اسمها بالفرنسية: "آن"، وإذا عاود الشخص السؤال عنه، تنطقه على الطريقة الألمانية: "أنَّا"، حيث تنطق حرف المد في النهاية، كما هو مألوف في الألمانية. أما "توماس"، فينطق اسمها بطريقته الخاصة، التي تقارب النطق الفرنسي بعض الشيء، فهو لا ينطق حرف المد في نهاية الاسم – على غرار الطريقة الألمانية - بل يمد حرف النون قليلًا. إن النسخة الألمانية من الاسم أكثر لينًا، فحرف المد في النهاية يطلق العنان للفم، بدلًا من انغلاقه مع حرف النون.

لا تتعمَّد جذب الانتباه إليها عندما تنطقه بطريقتين مختلفتين، ولكنها ترفض أن تنطقه بالطريقة الألمانية مباشرة من أول مرَّة. ولسبب ما، عندما يسألها الآخرون عن طريقة نطقه بالفرنسية، تضطر إلى تكراره مرَّتين أو ثلاثًا. يعلم "توماس" أنها لا تحتمل الأحاديث المكررة، ولكنها تخفي مشاعرها عندما ترافقه في المناسبات الرسمية. أحيانًا تصمت للحظة، كي يتدخل هو ويجيب عنها، ليستفيض بعد ذلك في الحديث عن خبراته في فرنسا؛ فقد تذوَّق لحم الضفادع والحلزون. وعندما يسألونه عن الصلصة، يشرح لهم ما شرحته هي له من قبل.

أحيانًا تجلس أمام البيانو دون أن ترغب في العزف. تفتح الغطاء كي تشعر بالقرب منه، ولكنها لا ترفع يديها من حجرها. آنذاك، كانت تجلس أمام البيانو وتستمع إلى الصمت، إلى أن يدخل "توماس" البيت، ويخلع حذاءه، ويعلق مفاتيحه. ثم يشعل النور، ويصيبه الفزع عندما يجدها جالسة أمام البيانو في حجرة المعيشة المُظلمة. ولأنها لم تكن تعزف، كان يدنو إليها بقدمين حافيتين - إذا كان الطقس دافئًا - تمامًا مثلما تجلس هي حافية القدمين أمام البيانو، فينحني حتى يُلامس فمه أو خدَّه جبينها، ثم يسألها:

- كيف حالكِ؟

فهو يعلم أنها لا تحب سؤال: "كيف الأحوال"، فهي صيغة مُختصرة، تُستخدم أيضًا في الفرنسية؛ تجده سؤالًا لا يحمل أي احترام للشخص الموجَّه له.

أخذت تربِّت بأصابع يدها اليُمنى على ظهر يدها اليُسرى، وسألت صديقتها:

- كيف حالكِ؟

قالت لها:

- تبدين في غاية الجمال، ما السر؟

فقالت "أنَّا":

- أتمشَّى كثيرًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

41

قالت الفتاة:

- أريد أن أتحرَّى عنها بنفسي، لأنه لا يحكي لي عنها شيئًا.

يُعتبر "توماس" خبيرًا في فن التهرُّب من الحوار؛ إذا أراد ألا يحكي شيئًا، فلن يحكي. لطالما حافظ على مساحته الشخصية، أو بالأحرى؛ حجراته الخاصة، التي تسميها "أنَّا": "حجرات القلب"، فيقول لها:

- "حجرات القلب" مصطلح طبي. يمكن أن أثبت لكِ عبر الأشعة، أنني لا أملك سوى "حجرتين". إنها حقيقة بيولوجية تسري على بني البشر أجمعين.

ترى "أنَّا" أن قلبه ميدان مألوف ومُتاح، ولكن تتفرع منه عدَّة شوارع ضيقة، يصعب الوصول إليها. وهناك، توجد عدَّة مبانٍ، خلف كل باب منها، تكمن "حجرات" متكدسة بأغراضه الشخصية، ولا يمكن الوصول إليها، فقد حجبها حتى عن نفسه. تظن "أنَّا" أنها تعرف تلك الأبواب، ولكن ربما يوجد مزيد منها الذي لم يخطر ببالها، بل ربما توجد حجرات لا يعرف هو عنها شيئًا.

تقول الفتاة:

- إن أُصيب بأزمة قلبية، فستكون بسبب تلك الأبواب، إن لم يتمكَّن من فتحها.

فتستطرد "أنَّا" قائلة:

- أو إن لم يتمكن من الوصول إليها من الأساس.

في إحدى المحادثات السخيفة بينه وبين الفتاة، قال لها ذات مرَّة:

- في الماضي، لم يكن مسموحًا أن يحتفظ كلا الزوجين باسميهما.

ثم تحدث وهو شارد الذهن عن أهمية اسم "أنَّا" بالنسبة لها، ولكنه لم يذكره، ثم تهرَّب من إكمال الحوار.

توصَّلت الفتاة من تلقاء نفسها إلى أن "أنَّا" فرنسية، قالت لصديقتها:

- إنها فرنسية؛ ما يعني جمالًا، ورشاقة، وأناقة، وظُرفًا، ولباقة، وثقة بالنفس.

فقالت صديقتها:

- كليشيهات، لا أكثر.

كانت الفتاة تشاركه ولعه بالأفلام الأجنبية القديمة، ولكنها لم تعد تحب مشاهدتها. في بداية علاقتهما، اعترف لها بعشقه للسينما الفرنسية التابعة لفترة الخمسينيات والستينيات، ولكنه بحكم عمله، عليه أن يُظهر إيثاره لأفلام أكثر تقدمًا وتعقيدًا. فهو لا يزال يفضل تلك الأفلام القديمة، لأن سحرها يكمن في بساطة الناس والحياة، وتآلف السرد دون حوار مُعقَّد، أو أحداث غامضة. حتى المشاريب، تطلبها الشخصيات، دون أن تشرب منها حتى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

42

جلست "أنَّا" على الأريكة، ولامست نسيجها الكتاني. لقد اشترتها من فرنسا، ولم تقدر على تركها هناك، فهي لا تحب الأثاث، الذي نغوص بداخله عندما نجلس. سمعت ضحكات الفتاة من مكان ما بالمنزل، تُدوِّى مثل قطرات الماء، أو حبَّات الرمل، ثم تتلاشى سريعًا حالما ترنُّ في آذانها. تريد أن تعرف طريقة كلامها، فهي بالتأكيد تتحدث لكنة "توماس" الأصلية.

أخذت "أنَّا" تُحدِّث نفسها محاولة أن تُقلِّد لكنته، على الرغم من يقينها أنها لن تصيبها أبدًا. وفجأة سمعت ضحكات الفتاة تُدوِّي في الحمَّام بقوة، ولكنها سرعان ما اختفت مرَّة أخرى. ثم سمعت ضجَّة أشبه بالتكسير، وكأن الحوض قد تحطَّم وسقط حُطامًا على الأرض، فنهضت من الأريكة على الفور.

وقفت عند عتبة الحمَّام ولم تجد شيئًا، ثم وقعت عيناها على قطع زجاج مُتكسِّرة داخل الحوض؛ إنه الكوب الذي تضعه بجوار صنبور المياه ليحمل فرشتي الأسنان. وجدت فرشاتها بين الشظايا، ولكنها لم تجد فرشاة "توماس". خافت أن تلمس الشظايا فتجرح يديها، فاكتفت بأخذ فرشاتها، ثم تخلصت منها بعد أن وجدت قطع الزجاج الرفيع تسلَّلت بداخلها.

خرجت من الحمَّام، ووقفت في حجرة المعيشة، حيث لم يُضِئها سوى نور المصباح بجوار الأريكة. نظرت إلى انعكاسها على زجاج النافذة، لتجد الفتاة أمامها. تمالكت نفسها وخطت خطوة نحوها. تلك الهيئة التي تراها منعكسة على الزجاج يمكن أن تنقضَّ عليها. أغلقت عينيها، ومع غلق جفنيها، أخذت الصورة ترتجف بعض الشيء. استدارت من هول الفزع، ونظرت إلى حقيبة ظهرها على الكرسي في المدخل، فهي تحوي التليفون المحمول والمحفظة. تجنَّبت النظر من حولها، وتوجَّهت مباشرة إلى المدخل كي ترتدي البوت، الذي لا يحتاج سوى لإغلاق سوستة واحدة. ثم أخذت المعطف بيد، والحقيبة باليد الأخرى. لم تستدر وراءها إلا لكي تغلق الباب بعدما خرجت من المنزل. ارتدت المعطف في الشارع أمام المبنى، ورمت الحقيبة على كتفها، ثم انعطفت يمينًا كي لا تسير أسفل نافذة بيتها، ثم أخذت التليفون المحمول، واتصلت بصديقتها. قالت لها:

- هل أنتِ بالبيت؟ لقد مررت بجوارك بالصدفة.

أبدت صديقتها سعادتها باستضافتها، فركبت "أنَّا" تاكسي، ووصلت إليها، حيث استقبلتها بزجاجة نبيذ وطبقين من الشيبسي والتسالي. قالت لها:

- كم أنا سعيدة بزيارتكِ. لا أتذكَّر آخر مرَّة التقينا فيها بعفوية.

سألتها "أنَّا":

- هل عطَّلتكِ عن شيء ما؟

- إطلاقًا!

- عفوًا، سأدخل الحمَّام.

كان المنزل دافئًا من كثرة المصابيح التي تُضيء به. نظرت "أنَّا" إلى المائدة المنخفضة في حجرة المعيشة، حيث وجدت بعض الجرائد. ترى ماذا كانت تفعل صديقتها قُبيل اتصالها بها؟

أخذت صديقتها أكوابًا زجاجية من الرَّف، ثم عرضت عليها النبيذ. سألتها "أنَّا":

- هل تشعرين بالضيق لأن ابنك لا يزال يعيش معكِ؟

ذهِلت صديقتها من السؤال. وقالت لها:
- أتفهم سؤالك، لأنكِ لستِ أمًّا.
- آسفة، لم أقصد.
- لا يمكث ابني في البيت لفترات طويلة على أي حال، كما أنه سينتقل إلى سكنه الخاص قريبًا. أما بالنسبة لي، فكم أودُّ أن يمضي معي وقتًا أطول.
حاولت "أنَّا" أن تشرح لها مقصدها من السؤال، فقالت:
- كنت أقصد وجود شخص معكِ، يحتاج إلى الاهتمام والعناية.
ابتسمت صديقتها، وأدركت "أنَّا" أنها لم تفهمها. أرادت أن تغير الموضوع، فسألتها عن العمل. وبينما استفاضت صديقتها في الحديث، استعذبت "أنَّا" صوتها، فهو مثل السور، الذي تسلَّقته كي تهرب من بيت الرعب الذي تقطن به. حكت لها عن الكوب الذي تكسَّر من تلقاء نفسه على الحوض، فقالت صديقتها:
- لعلَّه زلزال بسيط، لا نلاحظه إلا إذا سقط شيء ما.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

43

لا تجد "أنَّا" تفسيرًا لانتشار الطحالب في الشوارع، فهي تجدها في شتَّى المناطق. من أين أتوا هكذا؟ وكيف انتشروا على الأسفلت؟ يدهسهم المارَّة فيتفكَّكوا ليتحولوا إلى بقع سوداء على الطريق.

دائمًا ما تقف بعض الوقت وتنظر حولها، بحثًا عن علامة مميزة، مثل محل ورد أو حضانة. أحيانًا تدرك بعض الروائح المميزة أيضًا، ليست روائح بالمعنى الحرفي للكلمة، إذ كانت تتنفَّس من فمها.

كان الهواء دافئًا ورطبًا. فاحت رائحة أشبه بعبق الحمَّامات القديمة وغسيل الملابس، وكأنها تفوح من أسفل، ولكنها لم ترَ أنابيبَ أو قضبانًا للتهوية كي يتسلَّل منها ذلك البخار الساخن الذي تشتم رائحته فوق الرصيف، أو على الجدران.

بدت المباني من حولها مثل البيوت التقليدية، لا بد أنها على مقربة من مركز لتنظيف الملابس أو ساحة حمَّام سباحة، فعلى بُعد خطوات معدودة، تمتزج الرطوبة الدافئة بالهواء. تحوَّلت أنفاسها إلى لون أبيض أمام فمها، وشعرت برطوبة على وجهها في بشرتها وفمها وأنفها، دون أن تراها. شمت رائحة الغسيل ووقفت على الأسفلت وكأنها تحرس الطحالب.

يوجد في حقيبة ظهرها دفتر الملاحظات وجراب صغير، استبدلت به حقيبة ماكياج صغيرة؛ حيث وضعت فيها مزيلًا للعرق، وكريمًا مرطبًا للوجه واليدين، وكريمًا للحماية من البرودة، وعبوتين من المناديل، ولم تنسَ المناديل المبللة والبلاستر، بالإضافة إلى المسكنات وقطرات العين. وضعت أيضًا جوربين نظيفين، لتستخدمهما إذا ما ابتلَّ حذاؤها، وهو قلما يحدث. فكرت أن تغطي رأسها بتلك القُبَّعات التي تغطي معها جزءًا من الوجه، ولكنها تعودت على البرودة. يروقها ذلك الشعور، عندما تتمشَّى لساعات في الهواء الطلق، فيُجمِّد هواء الشتاء خدَّيْها، وتتحجَّر جبهتها.

تُفضِّل "أنَّا" أن تتمشَّى في المناطق التي لا تحوي معالم أثرية، فهي تحب أن تتأمل المعمار المميز الذي تشعر معه وكأنها في مكان جديد لم تزُره من قبل، أو في عصر مختلف، حبَّذا لو لم تتسلَّل إلى آذانها الألمانية أو الفرنسية.

أمام متجر، أو بالأحرى كشك صغير، جلست سيدتان على كراسي بلاستيكية وأمامهما على المائدة - البلاستيكية أيضًا - زجاجتان من المشروب الغازي. كانتا تدخنان، ووضعتا ساقًا على ساق، للتصدِّي للبرودة. بدا أنهما تحدثا الإيطالية أو الرومانية.

يكفي أن تقع عيناها على سلَّة المهملات البرتقالية كي لا تشعر بالغربة، فهي علامة مميزة لفيينا بالتحديد، شأنها شأن الواجهات التي بُنيت بعد الحرب، حيث وجدت أمًّا يافعة تراقب طفلها وهو يلعب.

وعندما نظرت إلى الجسر، استحضرت زمنًا آخرَ، حيث رأت رجلًا عجوزًا أحدبَ، يقف وحيدًا، ويرتدي بدلة سوداء، وقُبَّعة داكنة، لا يحمل شيئًا، ولا حتى عصا كي يتَّكئ عليها. أتى من الناحية الأخرى من النهر، حيث كان يقطن اليهود آنذاك.

أخذت تسير مُبتعدة إلى أن وصلت إلى شارع عريض وواسع، يحوي مباني صغيرة، لا تتجاوز الطابقين. وهناك، سمعت موسيقى ذات إيقاع مألوف يليق بكل بلدان الأرض، ولا يحتاج إلى لغة

معينة. جعلتها الموسيقى تستحضر صورة رجل عجوز يجلس على حافة سريره ولا يقترب من النافذة.

ظلَّت "أنَّا" واقفة في مكانها. مرَّت بجوارها سيارة بها شابان يرتديان جاكتين أسودين ثقيلين وينظران إليها في صمت. أحيانًا تبحث عن أقرب محطة باص، أو مترو كي تعرف أين وصلت. وبعدها تتوجه إلى البيت، إما بإحدى وسائل المواصلات، أو سيرًا على الأقدام. وحالما تقترب من المنزل، تشعر بغُصَّة في قلبها، فتتوجَّه إلى أي متجر أو مطعم عشوائي، هربًا من العودة إلى البيت.

لم تتنبه للموسيقى الصاخبة والإيقاعات السريعة، إلا بعد جلوسها.

قالت للنادل:

- أريد الشاي، كلا، بل "اسبريسو".

اكتشفت أنها لن تصمد في هذا المكان دون قهوة، فهي أكبر الزوار سنًّا.

لفت نظرها فتاة تجلس في منتصف المكان، وتبدو في الخامسة أو السادسة عشرة من العمر، لا أكثر. ارتدت بلوزة بكُمٍّ قصير وجلست وحدها تأكل وجبتها بقضمات كبيرة. كانت تمضغ طعامها، وتهز رأسها تماشيًا مع الموسيقى. اقتربت منها امرأة وانحنت إليها، حيث رأتها "أنَّا" من زاوية جانبية. بحث فم المرأة عن فم الفتاة، ثم استقامت المرأة، بينما أخذت الفتاة قضمة أخرى وهي تحرَّك رأسها مع الموسيقى، متجاهلة المرأة، التي انحنت إليها مرَّة أخرى، بحثًا عن فمها، حتى قبَّلت طرف شفتيها اللامعتين. كانت المرأة في عمر "أنَّا"، ممتلئة، وجهها مشرق، وشعرها أشقر فضي.

تأخَّر الوقت لتناول القهوة. تركت "أنَّا" الـ"اسبريسو"، ووضعت على المائدة مبلغًا أكثر من اللازم، لأنها لم ترغب في انتظار الحساب. تركت المكان، بعد أن تسلَّل إلى جسدها إيقاعه غير المحتمل.

أثناء مشيها، أخذت "أنَّا" تفحص الآثار التي خلفتها العاصفة في عديد من الأماكن، حيث ساد الارتباك. فقد تعطَّلت حركة المرور بعد أن تم لصق شريط أحمر سميك في عرض أحد الشوارع، مما جعلها تتذكَّر بعض الفعاليات والمناسبات، التي تعود إلى فترة طفولتها، وكانت تستخدم فيها تلك الشرائط الحمراء.

شعرت بالرياح تتسلَّل بين خصلات شعرها الخفيف، فعندما تصففه أمام المرآة، تلحظ تساقطه الشديد، على الرغم من أن مصففة الشعر دائمًا ما تشيد بسُمكه وجماله، ولكنها لا تصدقها أبدًا. لم تذهب إليها منذ فترة طويلة، ستحاول في المرَّة القادمة أن تنتبه لترى ما إذا كانت ستثني على شعرها السميك أم أنها ستصمت بعدما تلاحظ تساقطه.

جلست في حجرة المعيشة في المساء، ونظرت إلى "توماس" وهو يقف في المدخل أمام الباب قبل أن يترك المنزل. بدا في تلك اللحظة وكأنه مرسوم في لوحة فنية داخل إطار الباب. ربما ينام هكذا، ليس على الأريكة التي يفتحها ويحولها إلى سرير، بل رافعًا إحدى ساقيه ليتَّكئ بها على الباب، بينما يفتح عينيه مثل الحصان.

دخل "توماس" حجرة المعيشة وأضاء المصباح، الذي انعكس على وجهه، فبدا شاحبًا ومريضًا. أصرفت "أنَّا" بصرها عنه، لتعاود النظر إليه مرَّة أخرى.

سمعت ذات مرَّة بمصطلح "الوجه الرمادي"، ولم تفهم المقصود به، فكيف يمكن لوجوهنا أن تصير رمادية اللون؟ ولكن ها هي الآن ترى وجهه هكذا؛ رماديًّا، وباهتًا، ومُلطَّخًا في الوقت نفسه. فبشرته مُترهِّلة، تشوبها تجاعيد على جانبي أنفه وفمه، أبرزت خدَّيه المُتعبين والداكنين، بينما اختفت

عيناه بين الجيوب المُلتهبة من أسفل، والجفون المُتورِّمة من أعلى. أخذت تَمعن النظر في ذلك الوجه، إلى أن تخطَّت شعورها بالفزع.

بدا "توماس" مُمعنًا في التفكير. أخذ الجريدة التي كانت على مائدة الطعام. لم يبدُ فقط مُسِنًّا، بل أيضًا مُشوَّشًا. سألته:

- هل أنت على ما يُرام؟

ابتسم بوُدٍ دون أن ينظر إليها، ولكنها ظلَّت تراقبه بنظراتها. نظرت إليه وهو يأخذ الجريدة ويجلس على الكرسي بجوار الأريكة. تصفَّحها سريعًا، ثم وضعها على المائدة الزجاجية، ثم انحنى إلى الأمام وأسند ذراعيه على حجره.

سألها:

- كيف حالكِ؟

كرَّر السؤال مرَّة أخرى، ثم مدَّ ذراعه، ولكنه لم يصل إلى رُكبتها، فأسند ذراعه على حجره مرَّة أخرى.

قالت "أنَّا":

- شعرت بنشوة غريبة عندما راقبت أضرار العاصفة. كانت المدينة مُفكَّكة، ولكن أيضًا مُنشغلة.

أومأ برأسه، ثم سألها:

- ماذا عن المدرسة؟

تعجَّبت من السؤال، وصمتا للحظة، ثم قالت له:

- إنك في حالة غريبة من التشوُّش والارتباك، وكأنك فقدت إحساسك بالزمان.

أومأ برأسه مُبتسمًا، ومسح على رأسه، ثم وقف قائلًا:

- حسناً إذًا.

قالها وكأنه يختتم حوارًا، ثم أمسك بالجريدة مرَّة أخرى.

في ذلك المساء، تفحَّصت "أنَّا" الفواتير. بدا وكأن الفتاة قد شربت عصيرًا، وتجنَّبت شرب النبيذ لسبب ما، بينما تناول "توماس" كأسين من النبيذ. أو ربما تناول هو العصير بسبب الاضطرابات التي يُعاني منها في معدته، ثم شرب كأسًا مع الفتاة، بعدما أنهى الطعام وشعر بتحسُّن.

لعدَّة أسابيع مُتلاحقة، لم تجد "أنَّا" سوى فواتير قليلة، وتزامن ذلك مع عودته المبكرة إلى البيت. وما إن ينضم إليها في حجرة المعيشة، حتى تتركه بعد رُبع ساعة على الأكثر بحجة التعب، ثم تغسل أسنانها ووجهها، وتظل في حجرتها، تقرأ كتابًا على فراشها.

من الصعب أن تجد فاتورة لجهاز اختبار الحمل، فـ"توماس" لا يعترف به من الأساس. خشي "توماس" أن تصبح الفتاة حاملًا منه، وتنفَّس الصَّعداء، عندما جاءها الحيض، لدرجة أنه حملها إلى الفراش، وأخذ يُقبِّلها بقوة، حتى راح في النوم فجأة. أخذت الفتاة تنظر إليه، ثم قامت بحذر وذهبت إلى المطبخ. أغلقت الباب خلفها وفتحت النافذة، لتتَّكئ عليها، بينما تدخن سيجارة. وعندما استيقظ "توماس" من النوم، وجدها تفوح برائحة طيبة بعد أن غسلت يديها بصابون اللافندر. كانت تمُصُّ قرص استحلاب، وجدته في جيبه. على الرغم من سعادته وهو بجوارها، فإنه لم يفهم لماذا تفحَّصت جيبه بتلك الطريقة المُريبة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

44

استيقظت "أنَّا" من النوم، وأخذت تمشي في البيت المظلم كي تجلب كوبًا من الماء. لم تجد معطف "توماس" مُعلَّقًا عند المدخل. جلست في حجرة المعيشة على الأريكة، ووضعت الكوب الزجاجي على المائدة الزجاجية، فصدر صوتٌ قوي مع ذلك الاحتكاك. شعرت بالفتاة، فقد ظهرت بلا مقدمات، وبهدوء تام أمام الباب، ثم اختفت.

قالت لها "أنَّا":

- تعالي!

اقشعرَّت عندما اقتربت منها الفتاة، ولكنها مدَّت ذراعها وسط الظلام البارد، وقالت لها مرَّة أخرى:

- تعالي!

لا بد أن ذلك المخلوق الهوائي دائمًا ما يشعر بالبرودة.

قالت لها "أنَّا":

- سأُدفِّئ يديكِ!

لطالما عانت "أنَّا" من برودة يديها، بسبب إصابتها بخلل في الدورة الدموية ورثته عن أبيها. ولذلك، تحرص على مساج اليد قبل العزف، حيث تغلق أصابعها وتفتحها، ثم تحُكُّ يديها ببعضهما. كثيرًا ما تعتذر لها والدتها عن تلك الجينات.

كانت يداها تحتفظان بالدفء بعد انتهاء التدريب بعدَّة ساعات، فتشعر بالحيوية، وتتبدَّل طريقة مشيها وهي ترحل من الـ"كنسرفاتوار". فبيدين دافئتين تنفتح لها أبواب العالم، أما مع برودة أصابعها، فيزداد خطر تعرض يديها للكسر أو الإصابة في الأوتار أو العضلات.

عندما تتسلَّل البرودة إلى يديها أثناء الليل، تضعهما تحت المياه الدافئة. وفي الصباح، بينما تُعِد الشاي والقهوة وتضع الصحون والخبز على المائدة، يمسك "توماس" بيدها ويضعها على رقبته الدافئة يمينًا ويسارًا، فتشعر بنبضات قلبه.

سحبت "أنَّا" يدها بعد أن مدَّتها للفتاة، ووضعتها على رقبتها وشعرت بنبضاتها. قالت لها:

- إنني أيضًا دافئة هنا في رقبتي، اقتربي منِّي.

كل شهر، عندما يأتي الحيض للفتاة، يهيم "توماس" بها، بعد أن تظهر عليه علامات الفرح والارتياح. تستاء الفتاة من تلك السعادة التي تغمره، وتشعر بأنه يريد جسدها، وكأنها ملكٌ له. دفعته، ثم جلست باعتدال بعيدًا عنه، وقالت:

- أنا لا أريد أن أنجب أطفالًا.

فقال لها:

- إنها مسألة بيولوجية بحتة، إنكِ امرأة.

تشعر الفتاة بالغيظ منه، بل ومن جسدها أيضًا، لأنهما يتواطآن معًا ضدها. فمهما حاولت هي أن تقاومه، يضعف جسدها بسهولة أمام رائحته.

لا يحب "توماس" العطور، ويرى أنها لا تليق بالرجال. بعد مرور فترة على علاقته بـ"أنَّا"، أهدته عطرًا خفيفًا كي يستبدله بالعطر القوي الذي كان يضع منه بكثرة، وبشكل نفَّاذ. لم تبُح له بذلك، كي لا

تضايقه. ولكنه لم يستخدمه، إلا بعد مرور عدّة أسابيع، حيث أخذ يضع منه القليل، لدرجة أنها لم تلحظ ذلك، إلا بعد فترة.

أما الفتاة فرائحتها مُنعشة وجميلة، فهي تضع العطر على ملابسها.

ذات مرَّة شرحت "أنَّا" لـ"توماس"، كيف أن غالبية النساء لا يعرفن الطريقة المُثلى لاستخدام العطور. وبينما أومأ برأسه وهو شارد الذهن، استطردت هي قائلة:

- لا بد أن نضع العطر على الرقبة، في المنطقة التي نشعر عندها بالنبض.

إنه المكان نفسه الذي يُدفِّئ فيه "توماس" يديها، وهو أيضًا المكان نفسه الذي تضع يديها عليه الآن. فعندما نضع العطر على تلك المنطقة، تمتزج رائحته برائحة الجسد.

إذا وضعت الفتاة عطرها على رقبتها - بدلًا من ملابسها - ستقل درجة التصاق رائحتها الجميلة المُنعشة بـ"توماس".

يظن "توماس" أن رائحة الفتاة تتغير في فترة الإباضة، ولذلك يتوخَّى الحذر، وينصرف عنها في تلك الأيام من الشهر، بل وأحيانًا لا يُقابلها من الأساس. وهو ما يتبين لـ"أنَّا" من خلال مُعاينة الفواتير.

شعرت "أنَّا" بالدم وهو يفور في عروقها من قلَّة احتراسه. أرادت أن تتحدث معه عن الموضوع بشكل مباشر، وأن تُحمِّله مسؤولية ما يحدث، ولكنها لا تقدر أن تُفاتحه في الموضوع.

تقول الفتاة:

- بالتأكيد تعرف زوجته عنِّي!

ولذلك اقتربت الفتاة من "أنَّا" وجلست بجوارها على الأريكة، فهي تريد أن تتعرَّف عليها.

حكت الفتاة لـ"أنَّا" عن أول ليلة معه، فقد ترددت بعض الوقت، قبل أن تأخذ الواقي الذكري من منضدة السرير، بسبب كبر سنِّه. حاولت "أنَّا" أن تمنع نفسها من الضحك، كي لا تُحرج الفتاة.

كانت صديقة الفتاة قد أكدت لها من قبل أن الشعور بالإثارة يختلف، ويصبح أكثر متعة، ويدوم لفترة أطول، مع الرجال الأكبر سنًّا.

ضحكت "أنَّا" والفتاة، وهما تجلسان بجوار بعضهما بعضًا. وأرادت الفتاة أن تتأكد من صحة إحدى القصص التي حكاها "توماس"؛ ففي شبابه، وأثناء مُضاجعته امرأة ما، أخذ يقرأ النبذة الموجودة على غلاف كتاب وجده على منضدة السرير. أرادت الفتاة أن تعرف مدى صدقه، أما "أنَّا" فاستحضرت في تلك اللحظة عديدًا من الذكريات، وشعرت بتيار هواء قوي على وجهها. كيف له أن يقرأ نبذة على غلاف كتاب فوق منضدة السرير أثناء المُضاجعة؟ هل سبق أن فعل شيئًا كهذا معها؟ إنه دائمًا ما يُمعن النظر إليها أثناء مُضاجعتها، ودائمًا ما تتفاعل هي مع ابتساماته لها، بينما يحرك وجهه وكتفيه بعفوية.

وسط ذلك الظلام ما زالت الفتاة بجوارها، تنتظر منها إجابة؛ تريد أن تعرف، ما إذا كانت تلك القصة حقيقية. قالت لها "أنَّا" بالفرنسية:

- ارحلي!

قالتها بلطف.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

45

انتشرت الرطوبة على رفوف الحمَّام. زحزحت "أنَّا" صندوق الفوط الصحية إلى الخلف بجوار دواء الحموضة. ربما لاحظ "توماس" أنها لم تعد تضع أكياسًا بلاستيكية داخل سلَّة المهملات الصغيرة.

قالت الفتاة لصديقتها:

- إنه يعلم جيدًا موعد دورتي الشهرية، فيكتشف الأيام الخطرة، ولا يلمسني.

وهو ما وجدته صديقتها أمرًا لا يمكن الاستهانة به.

دائمًا ما يسألها "توماس":

- ألم يحِن موعد دورتكِ الشهرية؟

وفي إحدى المرَّات قالت له:

- أشعر وكأنني تحت المراقبة.

فقال لها:

- غيرك من النساء يشكيَّن من عدم اهتمام رجالهن بتلك التفاصيل.

قالت صديقتها:

- يمكن أن يكون سؤاله نابعًا من الاهتمام.

عندما انقطعت دورة "أنَّا"، لم تخبره شيئًا، فقد ظل موعدها يتباعد لعدَّة أشهر، لدرجة أنها توقفت عن وضع العلامات على أيامها في الجدول الزمني، ولم تحتج لشراء عبوة جديدة من الفوط الصحية لمدة عام أو اثنين. وصارت تضع العبوة في آخر الرَّف، خلف دواء الحموضة، ولا يلاحظ "توماس" اختفاءها في ذلك الرَّف الرطِب.

وقف "توماس" ونظر إلى الدم من تحته قائلًا:

- أبدو مثل الجزار!

ثم أمسك بالشعر الذي التصق ببطنه.

عندما يُضاجع الفتاة أثناء الحيض، لا يدوم الهدوء بعدها طويلًا. إذ يذهب ليستحمَّ، بينما تظل هي على سريرها بعض الوقت. قالت "أنَّا" للفتاة:

- أتفهَّم شعورك في موقف كهذا!

شعرت الفتاة بالإهانة عندما ذُعر منها في تلك المرَّة، حيث دخلت الحمَّام، ووضعت كأس الحيض بسرعة وتلقائية، بينما كان يُجفِّف نفسه. وعندما رفعت بصرها، وجدته ينظر إليها. سألها:

- ما هذا؟

فقالت:

- إنه كأس الحيض.

فقال وقد بدت على وجهه علامات الاشمئزاز:

- شيء مقزز!

حاولت أن تشرح له، ولكنه قاطع حديثها، قائلًا:

- لا داعي للشرح، أنا أعرف ما هذا.
ثم خرج من الحمَّام. وبعد ذلك، قال لها:
- يا حبيبتي، بعض الأمور يجب ألا تشاركيني إياها.
سألته:
- لماذا أنت متحفِّظ هكذا؟
هزَّ رأسه قائلًا:
- هذا شيء آخر.
قالت صديقتها:
- لعلَّها مسألة اختلاف أجيال.
تعتقد الفتاة أنه لا يشعر بمثل هذا التقزُّز من "المرأة". قالت:
- تلك الفرنسية الكليشي، قد تكون طائشة، ولكنها أبدًا ليست مُبتذلة.
فقالت صديقتها:
- إنني حقًّا لا أفهم ما يدعو للاشمئزاز من كأس الحيض.
قالت الفتاة لـ"توماس":
- أعدك ألا يتكرر هذا الموقف ثانيةً.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

46

اشترى "توماس" و"أنَّا" جهاز اختبار الحمل من إحدى الصيدليات، وكانت نتيجته سلبية. قال لها:

- ربما يؤثر عليكِ مرض والدك نفسيًّا، أو ربما توجد أكياس بالمبيض.

وبعد أسبوع، ذهبت "أنَّا" إلى الطبيب. ولأنه أحد أصدقاء "توماس"، هيَّأ نفسه لاستقبالها بسعادة وترحاب، مع الحفاظ على الجدية والموضوعية، التي تتطلَّبها مهنته. كشف عليها، بينما لاحظت كيف تحوَّلت علامات السعادة على وجهه إلى بعض القلق. لم يوجِّه لها أي أسئلة، وأخذ يُدوِّن التواريخ الخاصة بالدورة الشهرية؛ لعلَّها معلومات ضرورية، أو ربما لم تفهمه هي جيدًا. ولكنها لم تشعر بأي قلق من تلك الفجوات اللغوية، لأنه صديق للعائلة. أكد لها أنها تُعاني من أكياس بالمبيض، وأرسلها إلى المستشفى لاستئصالها كلها. كان أول تخدير كلي تخضع له في حياتها. تتذكَّر ذلك الارتباك الذي انتباها بعدما استيقظت، ونُقِلت إلى غُرفة الملاحظة. أخذت تتخيَّل اللقاء، الذي سيجمع زوجها بصديقه الطبيب. بالتأكيد كان سيُطمئِنه الطبيب على حالتها، ليتجنَّبا بعد ذلك الخوض في ذلك الموضوع إلى الأبد. ليس من الحكمة أن يذهب الزوجان إلى طبيب أمراض نساء وتوليد صديق للزوج.

في تلك الفترة، اهتم "توماس" بها، وكأنها تُعاني من مرض خبيث. حرص على إعداد الشاي لها كل يوم، مهما أكدت له أن معدتها لا تشكو من شيء. كان يأخذها كي يتناولان الطعام خارج البيت، ويحكي لها عن تفاصيل عمله حتى تذهب إلى الحمَّام وتتقيَّأ بسبب النبيذ. وعندما تعود إليه، تجده يجلس حزينًا، وتظهر على وجهه علامات الشعور بالذنب، ليبتسم لها حالما يراها. أحيانًا كان يطلب منها أن يتمشَّيا معًا، إن لم يكن لديها محاضرات مسائية. كان يرى أن الهواء الطلق سيحسِّن من حالتها، فيقول لها وهي تمشي بجواره:

- إن شعورك بالحزن أمر طبيعي، ويعود إلى الهرمونات.

فتقول له:

- أرجوك، كفانا حديثًا عن هرموناتي.

فيصمت.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

47

اشتدَّت برودة الطقس، واشترت "أنَّا" القفَّازات المناسبة للخروج. إذا أصاب يديها أي مكروه بسبب تعرُّضها للبرودة، فسيصيبها عجز جزئي، وستتم إحالتها إلى المعاش المبكر، ولكنها تعلم تمامًا أنها يمكن أن تمارس مهنتها هكذا، ولن يلاحظ أحدٌ أنها لم تعد تعزف بشكل سليم.

كانت تتوجَّه إلى شمال المدينة كل يوم، حيث تتمشَّى وسط الخلاء بجوار المباني، وتقول لنفسها إن المنطقة مزدحمة بالسكان، ولكنها فقط خاوية بسبب البرد الشديد. تجد حديقة ألعاب صغيرة للأطفال، وبها أوعية كبيرة مليئة بالرمال كي يلعب فيها الصغار، ولكن البرودة لا تسمح بترك الأطفال، أو حتى الكبار، في الخارج، فالسماء تبدو مثل شاشة كبيرة مُلطَّخة بدرجات الأبيض والرمادي، وحتى الألوان الداكنة.

تصل كل يوم إلى حي مختلف. وعندما تجد بين الحين والآخر أشخاصًا آخرين، تنتابها فرحة مؤقتة، حتى وإن كانا اثنين يتمشيان معًا في صمت، فهي لا تريد أن تتبادل أطراف الحديث مع أيٍّ من المارَّة، ولا تهتم أن يلاحظوها من الأساس.

تحب "أنَّا" المُسنِّين، فهم يميلون إلى الصمت، ونظرهم ضعيف. يوجهون اهتمامهم وانتباههم للمُشتريات التي يحملونها في طريق العودة إلى البيت. وفي الشتاء، يمشون مُنتبهين، ومُلاصقين لحوائط المباني. أمَّا الأطفال، فيمشون ببطء، ويرجعون رؤوسهم إلى الخلف، ممسكين بأيادي الكبار، بينما تغطي قُبَّعاتهم الشتوية جبينهم بالكامل. ينظرون إلى "أنَّا" دون أن ينطقوا بكلمة واحدة، ويراقبونها لدرجة أنهم لا ينظرون أمامهم، إلا بعدما توجههم اليد التي يحملونها إلى الأمام.

تتأمَّل "أنَّا" حواف المباني وأسطحها، وكأنها إطار للسماء، وتحب أن تقف على النواصي، حيث تتسنَّى لها الرؤية بصورة أوضح. أحيانًا تحصي النوافذ كي تحسب عدد السكان. وإذا ما فتح أحدهم النافذة في تلك الأثناء، يُشتِّت انتباهها، فتنسى الرقم الذي وصلت إليه.

عندما تسلك طريق العودة، تتمشَّى في أجزاء مختلفة من المدينة، فترى مثًلا وسط ظُلمة ليالي الشتاء قُبَّة المرصد الفلكي المُضيئة.

في أحد الأيام وجدت مطعمًا عفى عليه الزمن، بالكاد يخلو من الزوار. جلست بجوار النافذة، وطلبت كأسًا من النبيذ. وعندما وجدت النادل يدخن سيجارة، طلبت منه واحدة، فأعطاها. كان النهر داكنًا، أخذت تراقب أنوار السيارات وهي تسير عكس التيار على الناحية الأخرى من الضفة. تطايرت رقاقات الثلج بجوارها خلف النافذة. أخذت تدخن كي تتحايل على إحساسها بالجوع. فالفتاة تدخن دائمًا وهي برفقة "توماس"، بينما يراقبها وهي تحمل السيجارة بين أصابعها مثل القلم، وتخفض رأسها قليلًا، فيقول لها:

- التدخين هو العادة الأسوأ على الإطلاق!

فترفع بصرها إليه، وتصمت.

توقف "توماس" منذ فترة عن التعليق على تدخينها، ولكنها إذا أصابها المرض، أو التهاب في الحلق، يلومها، ثم ينصحها بتناول العسل الدافئ، قائلًا:

- لا تغليه كي لا تبطلي مفعوله. وإن شعرتي بالألم ليلًا، فعليكِ بالأسبرين.

ستزورها صديقتها مساءً وتَحضر لها الكيوي، ولكن "توماس" لن يتمكن من زيارتها. يقول لها:
- لا أريد أن تصيبني العدوى، ولكني أعدكِ أن أتصل بكِ على الأقل مرَّة واحدة كل يوم.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

48

عندما مشت "أنَّا" في الشارع الخالي بجوار منزلها، سمعت صراخًا، ووجدت شابًّا نحيفًا يرتدي سروالًا ضيقًا على الناحية الأخرى من الشارع بجوار الميدان. كان يقفز من مكانه ويخبط بساقيه على الأرض ويلكم عمود النور وكأنه في حالة انهيار عصبي. نظرت حولها حتى وجدت رجلًا يعبر إليه بسرعة. وعندما وصل إليه، ركض الشاب بعيدًا وهو يصيح. انتظرت حتى يلتفت إليها الرجل ويطمئنها، ولكنه لم يفعل.

عمَّ السكون أرجاء البيت، وما إن خلعت "أنَّا" حذاءها والمعطف، حتى شعرت بهمسات الفتاة. أخذت تتخيَّلها مع القطة، وهما تجلسان بجوار النافذة وتراقبان الشارع أثناء غيابها، بينما تحرص الفتاة على أن تلتزم القطة الهدوء.

فتحت "أنَّا" الثلاجة، وأخذت قطعة من الزبدة مع زجاجة المربى وصحن من العنب، ثم وضعت حبَّة من العنب في فمها، ولكنها كانت باردة، وبلا مذاق. وفجأة سمعت صوتًا من خلفها، يقول:

- مرحبًا!

استدارت بسرعة وفزع، فإذا بـ"توماس" يسألها:

- ماذا بكِ؟

كان يتَّكئ على الباب، ويغطي نفسه ببطانية صوف حول كتفيه، ويسعل بقوة. نظرت إلى رُكبتيه العاريتين سائلةً:

- هل أنت مريض؟

فسألها:

- هلَّا أعددتِ لي فنجانًا من الشاي؟

أومأت برأسها، ونظرت إلى وجهه المُتعَب، ثم استدارت، بينما جلس هو على الكرسي. سألها:

- أين كنتِ طوال الوقت؟

كان صوته مبحوحًا وضعيفًا. لم تتضح مخارج ألفاظه. قالت له:

- في الميدان أمام البنك. رأيت شابًّا فقد صوابه، يلكم عمود النور.

كرَّر كلامها مُتسائلًا:

- يلكم عمود النور؟

غطَّى رُكبتيه وذراعيه بالبطانية، وضمها حول صدره، ثم سألها:

- أين وضعتِ الأدوية؟

سألته عن الدواء الذي يحتاج إليه كي تحضره إليه، فالأدوية بداخل صندوق في الحمَّام. ولكنها ذهبت هناك ولم تجده. أخذت تبحث عنه في المطبخ، وحجرة المعيشة، والمخزن، وتعجبت من الفوضى التي سادت أرجاء المنزل. ثم بحثت في المدخل، إلى أن أدركت أنها لن تجده. قالت له على عتبة باب حجرته:

- أنا آسفة، اختفى الصندوق.

سألها باستياء:

- أي صندوق؟
أجابته:
- صندوق الأدوية.
قال لها:
- الطقس شديد البرودة داخل البيت.
أشعلت المدفأة، وتذكَّرت الشاي، الذي كان جاهزًا منذ فترة، فسكبته في الفنجان، ودخلت به حجرته. كان مُستلقيًا على فراشه، وبجواره على مائدة صغيرة عديد من الكتب وأكواب الماء الفارغة. قالت له:
- الشاي جاهز.
وضعت الفنجان على المائدة، ثم أدخلت الأكواب الفارغة داخل بعضها وحملتها، فاكتشفت غبارًا مُتراكمًا، وبُقع على شكل دوائر عند موضع الأكواب. أخذت الأكواب إلى المطبخ، ثم عادت بقطعة إسفنج مبللة لتنظف المائدة، بعد أن رفعت الكتب. اعتدل "توماس" في جلوسه، وشم رائحة شعرها. بينما استقامت هي بعد أن أنهت التنظيف. سألها:
- هل كنتِ تدخنين؟
ثم نظر إلى النافذة.
سمعت "أنَّا" بعض الهمسات الخافتة، ووجهت نظراتها إلى تليفونه المحمول، الذي كان يُضيء تحت الأريكة على الباركيه. ثم رفعت بصرها إلى زوجها ووجدته ينظر إليها. خرجت من حجرته، وأغلقت الباب. انتبهت إلى أنها تحمل الكتب في يدها، فتركتها على عتبة الحجرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

49

في الصباح يكسو الجليد الطرقات والأسقف. ارتدت "أنَّا" جوربًا طويلًا تحت البنطلون، وذهبت إلى الكافيه، حيث وجدت بعض الزائرين الدائمين متفرقين عند الأركان وقاية من البرد. وضعت النساء الثلاث شالات طويلة حول أكتافهن وظهورهن. ففي ذلك الوقت من العام، تأتي الوقاية من البرد على حساب الموضة. أما العاملين في المكان، فوقفوا بجوار الموائد على مسافات متباعدة، خافضين رؤوسهم.

ظلت حركة المرور خفيفة لوقت أطول من المُعتاد، بسبب انتشار الجليد في الشوارع، وما إن ذاب بحلول الظهيرة، حتى ساد الزحام في كل مكان.

بدأت "أنَّا" رحلة اليوم، وتوجَّهت إلى الشمال. وعندما مرَّت بجوار إحدى الصيدليات، تذكَّرت "توماس"، فقررت أن تشتري له الأدوية اللازمة. سألتها العاملة بالصيدلية عن الأعراض، فقالت:

- سُعال شديد.

فسألتها العاملة:

- سُعال جاف؟

أجابت بـ"نعم"، لأنها لا تعرف أي أنواع أخرى من السُّعال، ثم سألتها العاملة:

- كم يبلغ عُمر طفلكِ؟

نظرت إليها "أنَّا" باندهاش، إلى أن اعتذرت لها العاملة، وسألتها:

- أم أن المريض ليس طفلًا؟

أجابتها:

- كلَّا، إنه رجلٌ كبير.

كتمت العاملة ضحكاتها.

وفي طريق العودة، دخلت "أنَّا" السوبرماركت، حيث وضعت في سلَّتها بعض الخبز، والزبدة والتفاح، ثم توجَّهت إلى الكاشير، ولكنها قرَّرت أن تستكمل الشراء. أخذت تبحث بين أكياس الشيبسي، ثم عادت إلى رشدها، وتوجَّهت إلى ركن الشاي، وأخذت عبوة. كما بدا لها منطقيًّا أن تأخذ مجموعة من الخضراوات، كي تُعِدَّ لـ"توماس" الحساء. وبعدما وصلت إلى الكاشير للمرَّة الثانية، شعرت أنها تحتاج إلى شيء آخر، فأخذت بعض أكواب الزبادي ولوح شوكولاتة.

عندما عادت إلى البيت، سمعت أصواتًا من داخل حجرة "توماس"؛ صوت امرأة، وصوتًا ذكوريًّا غليظًا.. ثم اكتشفت أنه الراديو.

كان "توماس" مُستلقيًا على كنبته. سألته عن صحَّته، وأعطته الأدوية، ثم ذهبت إلى المطبخ كي تعد له الشاي. تركت الغرفة، قبل أن يقول لها إنه لا يُعاني من السُّعال الجاف. ناداها من بعيد قائلًا:

- هل يوجد طعام للعشاء؟

فأجابت بصوتٍ عالٍ:

- سأعد لك الحساء.

جهَّزت اللوح الخشبي والسكين كي تقطع الخضراوات، ولكنها شعرت أن المقادير ليست كاملة. فوضعت الخضراوات في الثلاجة، ونزلت في الخفاء سريعًا إلى المطعم الفيتنامي، كي تشتري الحساء الجاهز من هناك.

في اليوم التالي، سمعته وهو يترك المنزل. ثم قامت، وشربت كوبًا من الماء في المطبخ، حيث وجدت على المائدة دفتر التليفونات، الذي احتفظا به منذ عدَّة سنوات. كان الغلاف مُمزَّقًا بعض الشيء، وكذلك بعض الصفحات الداخلية. أصبحا بالكاد يستخدمانه بسبب التليفون المحمولات. كان "توماس" قد فتح صفحة الأطباء؛ لعلَّه يريد أن يزور طبيب الأسنان، أو ربما طبيب النساء والتوليد.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

50

أُصيبت الفتاة بشدٍّ عضلي، وصارت لا تقدر على تحريك رقبتها. حجز "توماس" موعدًا مع طبيب العظام، واصطحبها معه في السيارة كي يُوصِّلها. وهناك، أخذ "توماس" يتحدث مع الطبيب، بينما جلست هي في حجرة الانتظار. سأله الطبيب:

- ما رأيك أن نمارس معًا رياضة المشي؟

فأجابه:

- موافق، يحب أن أُحسِّن من مظهري.

ستسأله الفتاة عن علاقته بذلك الطبيب.

بعد مرور بعض الوقت، سمعت صوت الطبيب وهو يرافق امرأة إلى الباب. كان صوتها عذبًا، ولديها لكنة بسيطة، لم تستطع الفتاة أن تحدد جنسيتها. كانت قد علمت منذ فترة، أن "المرأة" عازفة بيانو. فقد ألحَّت في سؤالها عنها ذات مرَّة، بينما كان "توماس" شاردًا، حتى نفد صبره، وأخبرها بتلك المعلومة. لا بد أن "المرأة" - بحكم وظيفتها - تحافظ على اعتدال جلوسها، وبالتأكيد تعاني من آلام الظهر.

قال "توماس" عن ذلك الطبيب إنه الأفضل على الإطلاق، ولا حاجة لزيارة طبيب غيره. تخيَّلته الفتاة وهو يتمشَّى مع "توماس"، ويسأله مبتسمًا:

- ما قصة هذه الفتاة؟

فيقول له "توماس"، بعد أن يتحتَّم عليه أن يبتسم هو الآخر:

- كلا، لا يوجد شيء من هذا القبيل.

فيقول له الطبيب:

- حسنًا يا عزيزي.

دخلت مع الطبيب إلى غُرفة الفحص، حيث اعتذر لها عن انتظارها له.

بعد العلاج، شعرت بتحسُّن ملحوظ، إلا أن الألم عاد إليها مرَّة أخرى بعد بضعة أسابيع.

قالت لـ"توماس":

- لا أرغب في زيارة الطبيب.

فسألها:

- إن كان بسبب التكاليف، فلا تحملي همًّا.

قاطعته قائلةً:

- المسألة لا تتعلَّق بالتكاليف، إنها مسألة وقت، فأنا مشغولة هذه الأيام.

أبدى تفهُّمه قائلًا:

- أنتِ "شاطرة"، وطموحة.

قالت الفتاة لصديقتها:

- لا أحب أن يقول لي هذا الكلام؟ فهو يشعرني أنه رجلٌ مُسنٌّ.

قالت صديقتها ساخرةً:

- "شاطرة"؟ هل ما زال أحد يستخدم تلك الكلمة؟
فقالت لها:
- ربما في كتب الأطفال، يقولون إن الفتيات اللاتي تساعدن في أعمال البيت فتيات "شاطرات".
فقالت لها صديقتها:
- ربما في كتب الأطفال العتيقة التي صدرت منذ مائة عام.
عندما تعاني الفتاة من مشاكل صحية، يطلب منها "توماس" أن تشرح له حالتها بالتفصيل، وينصت إليها بإمعان، ويتنفَّس الصَّعداء عندما يطمئن عليها.
في إحدى المرَّات عندما انحنت كي تأخذ شيئًا من الأرض، قال لها:
- إن مؤخرتك تشبه مؤخرات الصبيان.
لاحظ عليها ذلك منذ فترة، فهي تزداد نحافة يومًا عن يوم.
لاحظت "أنَّا" من خلال الفواتير، أنها لا تتناول سوى المُقبِّلات، أو السلطات. يحاول "توماس" أن يشجعها كي تطلب ما تشتهيه، ويعِدها أن يستكمل طعامها حالما تشبع، ولكنها تصمم على الوجبات الخفيفة. أحيانًا تطلب الحلوى، ولكن "أنَّا" تعلم أن "توماس" يأكل نصفها.
عندما يصطحبها بسيارته ويسألها: "ماذا أكلتِ اليوم؟" تحرَّك كتفيها بتلك الإيماءة التي تحمل معنى "لا أعلم". وعندما يضع يديه على عينيه ويمسح على وجهه كي يُظهر لها تعبه، تتجاهله. وعندما يبوح لها عن شعوره بالتعب، تقول:
- من الطبيعي أن تشعر بالتعب. أنت السبب، أنت تتحمَّل مسؤولية ذلك، أو على الأقل نصف المسؤولية.
تضحك، ويحتار هو من ردَّة فعلها هذه، ولكن يكفيه أن يشعر أنها استعادت قدرًا من حيويتها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

51

تعلَّمت "أنَّا" من والدتها أن تستشفَّ من ملابس الناس وضعهم المادي، ودرجة نظامهم، وطريقة اعتنائهم بأنفسهم، وما إذا كانوا يعتنون بملابسهم بأنفسهم، أو أن شخصًا آخرَ يتولَّى ذلك نيابةً عنهم. كما تنتبه إلى أدَّق التفاصيل، مثل البُقع على البنطلونات، والياقات المُتَّسخة، والنسيج المهلهل، والقماش المُجعَّد، وأكمام القمصان التي تبرز أسفل الملابس. ولكنها لم تعد تكترث بهذا كله، ربما لأن الزمن قد تغيَّر. فقد صارت الآن تنتبه إلى حركة الجسد، وتراقب حركات اليدين والذراعين، والرقبة.

تشعر وكأن الأيام صارت أطولَ، على الرغم من أن الغروب يبدأ في تمام الخامسة مساءً. كانت السماء في الصباح مُلبَّدة بالغيوم، ولم تتوقَّف الأمطار طوال اليوم. سمعت في الراديو عن ضربة نووية مُحتملة. لم ترَ زوجها منذ يومين، ولكن سمعته مرَّة واحدة وهي على فراشها. كم تتمنَّى أن يجلس معها الآن ويسخر من مخاوفها، ويقول لها: "لا داعي للقلق، ستمضي على خير، ألا تتذكَّرين تشرنوبل، وكيف ظننَّا حينها أنها نهاية العالم؟".

وجدت في المعطف فاتورة لكافيه "صالون دو تي"، وهو شهير بصنع الشوكولاتة. كان مكتوبًا على الفاتورة بالفرنسية: "كوبان من الكاكاو الدافئ"، و"قطعة إكلير بالقهوة" مع "تارت بالتوت". من الواضح أن طاقم العاملين في هذا المكان يتحدثون الفرنسية.

لعلَّ "توماس" لم يتذكَّر معنى كلمة "توت" بالفرنسية. دوَّنت تفاصيل الفاتورة في دفترها. وتذكَّرت والدها، وكيف كانت تخرج معه في إجازة نهاية الأسبوع ليتناولا معًا شتَّى أنواع الحلوى. كانا يحرصان على تذوُّق كل شيء، وإن لم يعجبها شيء، يأكله هو.

أخذت تمشي بين مجموعة من السياح، دون أن تنظر إلى وجوههم.

اشتكت الفتاة لـ"توماس" من شعورها بالضعف والتعب. أراد أن يفعل لها شيئًا مميزًا، فقرَّر أن يدعوها إلى مشروب الشوكولاتة الساخن؛ الأصلي، لا إلى كاكاو ببُدرة الحليب. قالت له ساخطة:

- لست طفلة!

فقال لها:

- من قال إن الأطفال وحدهم هم من نُدلِّلهم بالشوكولاتة الساخنة؟

تعلم "أنَّا" أنه لم يتناول "إكلير القهوة"، فهو لا يحب ذلك العجين، مثلها تمامًا. فالـ"إكلير بالقهوة" هو الحلوى الوحيدة التي كان يطلبها والدها لنفسه دون أن يتقاسمها معها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

52

سمعت "أنَّا" دقَّات على باب حُجرتها، أرادت أن تقول: "تفضَّل"، ولكنها فتحت فمها وظلَّت صامتة. تنحنحت، ولكن "توماس" دخل على أي حال. كانت تجلس بجوار النافذة، وقدماها فوق المدفأة، وعلى حجرها دفتر الملاحظات. التفتت إليه.. وقف بجوار السرير، دون أن ينظر إليه. ففي آخر مرَّة استلقيا عليه معًا، تسلَّل بجوارها مثل اللصوص، بينما خافت هي أن تنضمَّ الفتاة إليهما أثناء النوم. سألها، دون أن ينظر إليها:

- هل ثقُلت عليكِ الأعباء المنزلية؟

وقبل أن تجيب، قال لها:

-إنني مستعد أن أوظِّف خادمة.

أنزلت قدميها، واستدارت. قال لها:

- فكِّري في الموضوع، فلا مانع لديَّ على الإطلاق.

ألقى كلمة تحية قبل أن يغلق الباب وراءه.

وضعت "أنَّا" قدميها على المدفأة مرَّة أخرى. سمعت خطواته داخل البيت، بينما وقعت عيناها على المنزل المقابل لها لتجد ظلًّا يتحرك خلف الستار.

دخلت الحمَّام، وألقت نظرة عليه، فوجدت بعض البُقع الرمادية داخل الحوض، تحتاج إلى بعض الخل كي تنظف. كما وجدت في حوض الاستحمام آثارًا داكنة وكأن ضيفًا خفيًّا غسل قدميه المُتَّسختين. مسحت مقعد المرحاض، قبل أن تجلس عليه. وأخذت تُمعن النظر في البلاط من حولها، حيث لاحظت انتشار البُقع.

لم يكن قد مرَّ وقت طويل على علاقتهما، فقط عامان أو ثلاثة. كان "توماس" يعمل في مدينة "بولونيا"، وسافرت إليه في أسبوع حافل بالالتزامات، فكان يعود إلى البيت في وقت متأخر من المساء، ثم ينام بضع ساعات، ويستيقظ في الصباح الباكر، كي يستدرك ما تبقَّى له من تحضير لمحاضراته.

كان يلتقي بها في فترة الراحة، فيحتسيان القهوة تارةً، ويتناولان الغداء تارةً أخرى، وأحيانًا يتنزَّهان، أو يجلسان معًا تحت شمس الأصيل. وفي بعض الأيام، كان يطلب منها أن تصاحبه إلى المكتب، كي تضمه إلى صدرها بضع دقائق؛ لم تكن تربت على رأسه، فقط تضمه إلى أن يعتدل، بعدما تبدو على وجهه علامات السكينة، وكأنه استيقظ من نوم عميق وهادئ.

وفي اليوم التالي استيقظ مع بزوغ الفجر. حاول ألا يُحدِث ضجيجًا، ولم يلحظ أنه يحدِّث نفسه بصوت خافت أثناء تحضير المحاضرة. سمعته "أنَّا" وهو يعد القهوة، وشمَّت رائحتها، ثم سمعت همهمته، وراحت في النوم. وعندما استيقظت، كان قد ترك المنزل منذ فترة.

انحنت في الحمَّام أسفل سقف النافذة المائل، كي تغلقها. مدَّت ذراعها من فوق المرحاض، ونظرت إليه، فوجدت قطعة براز صغيرة وداكنة وسط المياه. أغلقت النافذة، بينما انعكس شعاع الشمس على قطعة البراز هذه، فجعل الأتربة على الحواف والقاذورات على الحوض تبدو أكثر وضوحًا. كانت تريد أن تذهب إلى مركز المدينة، كي تتنزَّه قليلًا وتلقي نظرة على متاجر الأدوات الموسيقية

والمكتبات، إلى أن تلقى "توماس". ولكنها قررت أن تبقى بالبيت، كي تنظفه. فمنذ قدومها وهي تريد أن تقدم له أي نوع من المساعدة. أخذت تبحث في المنزل عن أدوات التنظيف. وعندما عاد، لاحظ ذلك على الفور، وسألها:

- هل قُمتِ بتنظيف البيت؟

شكرها كثيرًا، ولكنه أعرب عن استيائه أيضًا.

قالت لها صديقتها، وهي تأخذ الملابس من منشر الغسيل وتطويها:

- عاهدت نفسي ألا أنظف البيت لأي رجل. هل حقًّا تنظفين البيت بنفسك؟ بعد كل تلك السنوات؟

قالت "أنَّا":

- هكذا اتفقنا منذ البداية. ولهذا يعمل هو أكثر منِّي، وراتبه يفوق راتبي بكثير.

اكتشفت الصديقة ثُقبًا في إحدى قطع الملابس، فوضعتها جانبًا.

قالت "أنَّا" بغلاظة وصخب:

- أنا لا أطيق تلك الأعباء المنزلية.

خفضت رأسها ووضعت يديها على وجهها، بعدما أدركت كيف علا صوتها.

فقالت صديقتها:

- إذًا، فلتوافقي على عرضه.

ثم أغلقت منشر الغسيل، وسألتها:

- ألا تشتهين كأسًا من النبيذ؟

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

53

من صوته، تعرف الفتاة متى يشعر بالنعاس. استلقت بجواره على سريرها، وشاركته أفكارها وخواطرها، فهي تتحدث أكثر منه، بينما يُصدر هو تلك الأصوات التي توحي بالانتباه إلى ما تقول. أخذ ينجرف إلى النوم شيئًا فشيئًا، حيث تباعدت أصواته، ثم تلاشت تمامًا عندما راح في النوم. توقَّفت عن الكلام، وأخذت تتأمَّل وجهه، وتلك الخطوط الرفيعة أسفل عينيه، والجيوب الداكنة التي تشبه الهلال. تساءلت، هل من الوارد أن يتعرض لأزمة قلبية؟ عندما تطلب منه أن يهتم بصحَّته، يربت على خدها، فتشعر بأصابعه الصغيرة على وجهها. حرَّك جبينه أثناء النوم، فبرزت التجاعيد بين حاجبيه. وضعت أصابعها عليها، فهي تبدو أقل حدَّة في أثناء نومه، ولكنها ما زالت واضحة. لقد تناولا الحساء معًا بعد الظهيرة، ثم عاد معها إلى منزلها، حيث صار ينعم بنوم عميق. لم تكن لديه اجتماعات، فعندما يلتقيان بأحد المطاعم بعد الظهيرة، كثيرًا ما ترحل، بينما يظل هو في المكان حتى المساء، كي يستكمل اجتماعاته.

أخبرها أن لديه موعدًا في المساء. لا بد أنها إحدى تلك الأمسيات التي يقضيها مع "المرأة"، فبالتأكيد سيقابلان بعض الأصدقاء. نظرت الفتاة إليه وهو نائم بجوارها، حيث رفع جزءًا من الغطاء إلى صدره. إذا تركته نائمًا، ستفسد عليه موعده مع "المرأة". ولأنه يحرص على إغلاق تليفونه عندما يكون معها، فستظل "المرأة" تتصل به بلا جدوى، بينما ينام هو بجوارها طوال الليل من شدة تعبه. فكثيرًا ما يقول لها: "لا أشعر بالراحة إلا وأنا معكِ". أدارت الفتاة رأسها كي تنظر إلى الساعة؛ كانت الخامسة. شعرت بالتعب هي أيضًا، فتسلَّلت إلى الفراش بجواره، ولكنها تركت مسافة بينهما كي لا توقظه. وعندما حرك ذراعه على صدره، ظلت ثابتة بلا حراك. شعرت بالتعاطف مع "المرأة" التي ستقضي ليلتها في حيرة وقلق. وفجأة، رفع "توماس" يده إلى جبينه، ثم قال:

- يا إلهي! هل رحت في النوم؟

مدَّ ذراعه إلى الفتاة بجواره. وسألها:

- كم الساعة؟

قالت له:

- لا أدري، ربما الرابعة والنصف.

اطمأن "توماس"، ثم مسح بيديه على وجهه، وقال:

- لا بد أن أرحل في غضون نصف ساعة.

نهضت الفتاة، فقال لها:

- أنا لا أريد أن أرحل، تعالي إليَّ!

فتح لها ذراعيه، بينما نظرت هي إلى الساعة، وقالت:

- لقد تجاوزت الساعة الخامسة، عليك أن تذهب الآن، لا تجعل زوجتك تنتظرك.

ضحك "توماس" قائلًا:

- أتظنين أنني على موعد معها؟

أراد أن يحكي لها عن موعده، ولكنها رفضت أن تسمع، فقال لها:

- سأحاول أن أبقى معكِ ليلة كاملة في الأسبوع المُقبل. هل يناسبكِ يوم الأربعاء؟
- لماذا تحتاج دائمًا إلى التخطيط قبل أن تمكث معي؟ لماذا لا تقرر بعفوية أن تقضي الليلة بين أحضاني؟
- تعلمين أنه أمرٌ مستحيل.
- لا بد أن تتغير الأوضاع.
- ظننتك امرأة عصرية.
إنه لا يفهمها على الإطلاق. قال لها:
- كما أنكِ لا تستطيعين النوم بجواري.
قال ذلك لأنها تستيقظ من صوت شخيره، وتظل بعدها لفترة طويلة غير قادرة على النوم، فتضطر أن تضغط على بطنه إلى أن يتوقف عن الشخير. وفي الصباح يعتذر لها، ويقسم أنه لم يكن هكذا في شبابه.
ضحكت "أنَّا"، وتذكَّرت، كيف حكى لها قبل أن يبلغ الثلاثين، أنه نادرًا ما يشخر أثناء النوم.
لم تتعود الفتاة على شخيره، لأنه لا ينام بجوارها إلا قليلًا.
في معظم الليالي تسمعه "أنَّا" وهو يعود إلى البيت، وأحيانًا تستيقظ وقت الفجر وتسمع صوت شخيره.
لاحظت "أنَّا" مؤخرًا وجود عدَّة فواتير من مطعم جديد، ليس على مقربة من مكتبه، حيث يذهب هناك على الأقل مرَّة واحدة في الأسبوع، في فترة ما بعد الظهيرة. وفي إحدى المرَّات، طلب صحنًا من الحساء وكوبين من عصير العنب، مع القهوة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

54

يومًا عن يوم يصبح الطقس أكثر دفئًا. لا تحب "أنَّا" ذلك الدفء الذي تعُمُّ معه الضوضاء، فهو يُربك مسامعها ويُزيد من توترها بعد أن تعودت على سكون البرودة. إذ تتسلَّل إلى آذانها أصوات الصياح والصراخ والضجيج الميكانيكي، فتجد نفسها محاصرة بذلك الصخب المكثف، لدرجة أنها لا تتوقف عن النظر حولها.

هناك على الناحية الأخرى من الشارع، وقف طفلٌ صغير، يبكي ويصيح، بينما جلس والده بجواره على رُكبتيه. وبالقرب منهما، قطعة من الحلوى، أو ربما قمامة مُلقاة على الأرض ولا صلة لهما بها. وعلى الشارع المُوازي، تُصدِر إحدى السيارات المصفوفة صوتًا صاخبًا، بينما توقد أنوار مصابيحها.

تحرَّكت "أنَّا" ببطء محاولة أن تحافظ على إيقاع خطواتها، ولكنها لاحظت من ساعة يدها أنها أهدرت وقتًا طويلًا. لم تصل حتى إلى المناطق الخارجية من المدينة، بعد أن تباطأت خطواتها وصارت لا تنصت إلى إيقاعها، ولكنها أصبحت تنتبه للمتاجر والمحلات، وإن راقت لها قطعة من الملابس، تدخل المحل لقياسها.

اكتست عرائس المانيكان في المحلات بملابس الربيع، حيث انتشرت درجات اللون الأحمر. قالت البائعة:

- هذا أحمر قرمزي، وهذا أحمر مرجاني، وهذا أحمر بلون الطماطم.

في كابينة تغيير الملابس خلعت "أنَّا" حقيبة ظهرها وحذاءها الرياضي، الذي تسلَّلت إليه بعض حبَّات الرمل. ثم خلعت جواربها، فالجينز، فالكنزة، فالقميص الداخلي. دائمًا ما ترتدي حمَّالة الصدر نفسها، فهي غير مُبطَّنة، وتجعل صدرها مُسطَّحًا، ما يتناسب مع المشي لفترات طويلة. ارتدت فستانًا أحمرَ بلون الطماطم؛ موديل مستقيم ينتهي قبل الركبة؛ منذ فترة طويلة، لم تتعرَّض رُكبتيها إلى الهواء. سألتها البائعة من خلف الكابينة:

- كيف الأحوال؟

قالت "أنَّا":

- شكرًا، المقاس سليم.

خلعت الفستان، ثم ارتدت القميص، فالكنزة، فالبنطلون، فالجوارب، وأخيرًا الحذاء، بعد أن ربطته جيدًا. وخرجت من الكابينة حاملة حقيبة ظهرها. قالت:

- اللون ليس على ذوقي.

وفجأة سمعت صوتًا يقول:

- "أنَّا"؟

فأجابت:

- مرحبًا "يوليا"، يا لها من مفاجأة سارَّة.

قالت "يوليا":

- لم نتقابل منذ مدة بعيدة. دعينا نتناول العشاء معًا عندي في البيت، تعالي مع "توماس". هل يناسبكِ يوم الجمعة؟ علينا أن نحدد اليوم الآن، وإلا فلن نلتقي.

وفي يوم الأربعاء اتصلت بها "أنَّا"، كي تخبرها أن "توماس" يعتذر عن عدم الحضور، ولكنها ستأتي وحدها.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

55

في يوم الجمعة، ارتدت "أنَّا" بنطلونًا من نسيج صوفي فاخر، وحمَّالة صدر مُبطَّنة، أسفل بلوزة من الحرير، وجوارب نيلون، وبوتًا قصيرًا بحزام حول الكاحل، وكعب عالٍ. تركت الكريم والمناديل المعطرة في حقيبة الظهر، ووضعت المحفظة وحقيبة المكياج في حقيبة اليد مع علبة من شوكولاتة "البرالين"؛ فهي عادة فرنسية تحافظ عليها عند الزيارات.

أثناء نزول السلم استندت بيدها اليُمنى على الدرابزين، فلم يكن سهلًا عليها أن تحافظ على توازنها. صارت غير معتادة على السير بكعب عالٍ، وعلى الضغط المباشر على أصابع قدميها. استقلّت الترام، فهي تعرف الطريق إلى منزل "يوليا" و"ماكس" جيدًا، فهما أيضًا لم يغيِّرا محل الإقامة. وعندما وصلت إليهما، استقبلتها "يوليا" قائلة:

- لا داعي لأن تخلعي حذاءك، يا له من حذاء جميل.

قالت „أنَّا":

- لم أرتدِ هذا البوت طوال الشتاء.

قال „ماكس":

- الطقس دافئ بالنسبة لنهاية فبراير، وأوائل مارس.

سألت „يوليا":

- ألا يزال „توماس" مشغولًا كعادته؟ لم أعد أتذكَّر، متى قابلته آخر مرَّة، ولكنه يقابل „ماكس" بين الحين والآخر، أليس كذلك يا „ماكس"؟

أومأ „ماكس" برأسه.

سألته „أنَّا":

- كيف أحوال العيادة؟

أجابها:

- الأمور على ما يُرام، وعلى سبيل التغيير، التحقت بدورات تدريبية عن علاج „التوينا"، إحدى أشهر وسائل العلاج الصينية. وماذا عنكِ؟ سمعت أنكِ تقاعدتِ لمدة عام، أليس كذلك؟

أجابته بالإيجاب، ولكنها تعجَّبت، كيف وصلت إليه تلك المعلومة؟ لربما أخبره „توماس" بذلك أثناء سيرهما معًا. سألته:

- هل تتمشَّى مع „توماس"؟

ضحك „ماكس" و"يوليا"، فابتسمت هي.

لطالما كان „ماكس" أصلع الرأس، كما أن طريقة جلوسه لم تتغير منذ أن تعرفت عليه، فهو يجلس باستقامة وانتباه. إنه يكبر „توماس" ببضعة أعوام. سألته „أنَّا":

- أما زلت تواظب على الرياضة؟

فأجابها:

- ليس في الوقت الحالي.

قالت „يوليا":

- وتلومني طوال الوقت، لأنني لا أمارس الرياضة.
تأمَّلت „أنَّا" وجه „يوليا" المائل، وشفتيها، اللتين صارتا أكثر سُمكًا. إنها تصغر „أنَّا" بخمسة أعوام، أو ربما أكثر. نظر إليها „ماكس" وهي تذهب إلى المطبخ، بعد أن أخذت صحون المُقبِّلات، ثم نظر إلى „أنَّا" وسألها عن العام الإجازة، وعن روتينها اليومي. قالت له:
- كي أكون صادقة معك، لم أعد أعرف ما يحدث في حياتي هذه الفترة.
وضعت „يوليا" زجاجة النبيذ على المائدة، وقالت:
- لا بد أنه إحساسٌ رائع أن تحرري نفسك من كل ما يتعلق بالتزاماتك المهنية.
فقال لها "ماكس":
- إذًا، فلتُجرِّبي بنفسك، هيَّا، تحرري من التزاماتك المهنية.
قالت له:
- ولكنني أحب مهنتي.
نظر "ماكس" إلى "أنَّا"، فقالت "يوليا" وهي تناوله كأسًا:
- لا ترمقها بتلك النظرات. أنا سعيدة بكِ يا "أنَّا". وعلى أي حال، لا أعتقد أنني سأصمد في مهنتي أكثر من سنتين أو ثلاث.
ومع نهاية اللقاء، قالت لها "يوليا" وهي تودعها وتحتضنها:
- دعينا نلتقِ قريبًا.
شمَّت "أنَّا" رائحة كريم البشرة، والشامبو، والعطر الذي وضعته "يوليا"، والتي همست لها في أُذنها قائلةً:
- تعالي في المرَّة المُقبلة مع "توماس".
وقبل أن ترحل „أنَّا"، نظرت إلى „ماكس" وهو يقف خلف زوجته واضعًا يديه في جيبيه وينظر إلى أسفل.
كان الوقت قد تأخَّر، حيث توقَّفت رحلات الترام. شعرت „أنَّا" بألم في قدميها، بعد أن مشت بضع خطوات، فاستقلَّت „تاكسي".
في تلك الليلة، نامت نومًا عميقًا، ولم تستيقظ حتى وقت متأخر من صباح اليوم التالي، حيث ذهبت إلى السوبرماركت لشراء مستلزمات البيت؛ القليل من الخبز، وبعض الفاكهة، مع بكرة من المناديل. وعندما عادت إلى البيت، جلست في حجرة المعيشة، ووضعت فنجان الشاي على المائدة. ثم اقتربت قليلًا من البيانو، وجلست على رُكبتيها فوق البساط، وأخذت تتأمَّل نسيجه اليدوي؛ فهو بساط قديم، تختلف كل نقشة فيه عن الأخرى. أخذت تتحسَّس الخيط الأزرق وتتبعه بإصبع السبابة، إلى أن وصلت بجوار البيانو، حيث وضعت خدَّها الأيمن على دوَّاسة البيانو الباردة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

56

وجدت "أنَّا" بين فواتير المطعم وأغلفة أقراص الاستحلاب ورقة مطوية عدَّة مرَّات. كانت فاتورة بمبلغ كبير. أخذت تتفحَّصها، حتى وقعت عيناها على كلمة "إسفنج"، وتبين لها أن "توماس" قد اشترى مرتبة للفتاة. بحثت عن تاريخ تحرير الفاتورة، وحسبت أنه سيوافق عيد ميلادها.

اعتاد "توماس" أن يغدق "أنَّا" بالهدايا الفجائية بين الحين والآخر، ولكن دائمًا ما تنحصر أفكاره في إطار بعض الاحتمالات القليلة، مثل: شال ثمين، أو دعوة لأحد المطاعم الفاخرة.

لطالما أدهشتها قُدرته على تحمُّل النوم على الأريكة.

منذ فترة، كانت قد وجدت روشتة بخط يد "ماكس"، فلربما نام "توماس" ذات مرَّة على مرتبة غير مُريحة، وأصيب على أثر ذلك بآلام في الظهر. أو لعلَّه استيقظ ذات يوم بعد نومه على الأريكة شاعرًا بآلام مبرحة أسفل ظهره، جعلته غير قادر على الحركة. لعلَّه ناداها، ولكنها لم تسمعه بسبب أبواب الحجرات المغلقة، فوجد التليفون المحمول بجواره، واتصل بالفتاة، التي سألته عن الأعراض التي يُعاني منها باهتمام، بينما كانت "أنَّا" تستعد لمغادرة المنزل. لربما مرَّت "أنَّا" بجوار حجرته وسمعته يتلعثم بينما يشكو من آلام الظهر، ولكنها توجَّهت إلى باب المنزل وفتحته، في اللحظة نفسها التي أنهى فيها المكالمة، ولما ناداها مرَّة أخرى، كانت قد رحلت بالفعل.. بل وربما لا يقضي "توماس" الليالي في حجرته من الأساس.

دوَّنت "أنَّا" تفاصيل المرتبة في دفتر الملاحظات.

قال "توماس" للبائعة:

- أبحث عن مرتبة من الإسفنج.

سألته البائعة:

- "لينة أم صلبة؟".

لا يحب "توماس" المراتب "الصلبة". قالت الفتاة:

- "لا أريدها لينة بقدرٍ مبالغٍ فيه".

عرضت عليهما البائعة بعض المراتب داخل غطاء بلاستيكي، حيث وضعتها أمامهما على الأرض.

وجدت الفتاة المرتبة الأولى "لينة" بشكل مفرط، أما عن المرتبة الثانية، فاستلقيا عليها معًا حتى أصدر البلاستيك صوتًا صاخبًا. قال "توماس":

- هذه ليست مرتبة، إنها أداة تعذيب.

ضحكت الفتاة. أما عن المرتبة الثالثة، فوجدها "توماس" مثل اللوح الخشبي. زحزحت البائعة إحدى المراتب بجوار الحائط، فيما نهض "توماس"، ومدَّ يده للفتاة كي يشدها إليه. قالت له:

- كم أتوق لأن تنام بجواري على المرتبة الجديدة.

قالتها بصوت خافت لم تسمعه البائعة وسط أصوات البلاستيك الصاخبة.

قالت لهما البائعة:

- ستصبح المرتبة أكثر لينًا مع الوقت، عليكما التفكير جيدًا.

أخذت "أنّا" تبحث بين الفواتير، لربما تجد فاتورة مطعم بنفس تاريخ شراء المرتبة، فقد صارت على يقين أنه يوافق يوم ميلاد الفتاة. لا بد أنه دعاها على العشاء، وتناولا البيرة، والنبيذ الفوّار، وزجاجة من النبيذ المحلي الثمين، حتى احمرت وجنتاها، وظلت تداعبه إلى أن تركا المكان قرابة منتصف الليل.

سمعت "أنّا" صخبًا خلف باب حجرتها.

ففي ذلك المساء تناولا عديدًا من الكحوليات، لدرجة أنه راح في النوم حالما استلقى على سريرها. وعندما بدأ الشخير، أخذت الفتاة تدفعه بقوة، ولكنه لم يستيقظ، ومن فرط شعورها بالإحباط في صباح اليوم التالي، ما كان منها إلا أن حطّمت فنجان القهوة الذي حملته في يدها. لم تشأ أن تقضي معه ليلة عيد ميلادها هكذا؛ ولا ليلتهما الأولى على المرتبة الجديدة.

أخذت الفتاة تخربش بأظافرها على باب حجرة "أنّا".

ربما تريد أن تخدع „أنّا" كي تجعلها تظن أن „توماس" في البيت. فالأصوات التي تصدر منها، صارت تشبه أصواته، حتى وإن كانت تتلاشى في غضون لحظة واحدة. أغلقت „أنّا" دفترها، وأدركت أنها لم تعد تعرف ما إذا كان زوجها قد عاد إلى البيت أم لا، فلعلّها الفتاة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

57

فتحت "أنَّا" باب حجرتها، وشعرت بالفتاة تهرب سريعًا إلى الظلام. وفي المدخل، وجدت معطفًا مُعلَّقًا على الشماعة. هل هذا معطف "توماس" الذي أخذت من جيبه الفواتير؟ في ذلك الظلام، يصعب عليها أن تحدد ما هذا، فمعطف "توماس" قد يكون مفرودًا على سريره، أما هذه المعالم التي تجدها على الشماعة، فقد تكون بُقعة كبيرة على الحائط، أو خيالًا أسودَ، أو معطفها هي.

ذهبت إلى المطبخ، الذي كان أكثر ظُلمة. تراءت لها القطة مُستلقية بداخل صندوق صغير، وبدت لها حقيقية.

لم تفتح "أنَّا" الدولاب منذ فترة طويلة. إنه شديد الارتفاع، ويصل إلى السقف، فلا يمكن الوصول إلى الأرفف العلوية دون سلم. استشعرت توترًا يجتاح جسدها، فعلمت أن الفتاة اقتربت منها، ثم شعرت بذراعي الفتاة تحت ذراعيها، ولكنها لم تجرؤ على لمسها. تريد الفتاة أن تعرف ما يوجد بداخله؛ إنها مجموعة من الأنسجة التي لم تعد ترتديها، ومعها مجموعة من الغطاءات والمعاطف والجاكتات، كما توجد صناديق مليئة بالملاءات والقفازات، بالإضافة إلى بساط الحائط الفارسي، ورداء جد "توماس" المصنوع من اللباد.

شعرت "أنَّا" بالفتاة تحت ذراعها اليُسرى تهمس لها:

- افتحي الدولاب.. افتحي الدولاب.

ولكن أيتها الفتاة، ليس من الحكمة أن نفتح الدواليب هكذا في الليل؛ سأرى أشباحًا من الماضي، مُصطفِّين خلف بعضهم بعضًا. لربما أجد "توماس" بالمعطف الجلد، وهو في عمرك نفسه، ثم أجده بالمعطف الأسود، الذي لم يرتدِه منذ جنازة والده، وأجدني بجواره، بالمعطف الرمادي الداكن، الذي أثار استياء الحضور، على الرغم من البلوزة السوداء، والبنطلون الأسود والحذاء الأسود.

لعل صندوق القفازات يمتلئ عن آخره بيديَّ، وهما ترتديان القفازات المختلفة. ترتدي يدي اليُمنى بعضها قبل أن تلحق بها الندبة، التي أصابتها بسبب المائدة الزجاجية. وقد أجد يدي اليُمنى مرَّة أخرى، ترتدي قُفَّازًا بلا أصابع؛ إنه قُفاز "توماس"، الذي ضاع زوجه الأيسر.

لم تعزف "أنَّا" على البيانو طوال الشتاء.

أما عن "توماس" فلن تظهر يديه سوى مرَّة واحدة فقط، وهما ترتديان قُفَّازًا من الصوف، فهو لا يحب القفازات، وكثيرًا ما ينساها بعد أن يخلعها، حتى صار يكتفي بتدفئة يديه داخل جيوب المعاطف.

مدَّت "أنَّا" يدها اليُمنى أولًا، ولحِقتها باليُسرى كي تُمسك بالصندوق. ربما لن تجد بداخله تلك الأيادي إن فتَحَتْه، فقد يكون ممتلئًا بالرؤوس. ربما تجد رأسها بشعر قصير، وعليه قُبَّعة شتوية صغيرة، كانت قد ارتدتها في أحد مواسم الشتاء، وبجوارها رأس "توماس" يسخر منها قائلًا: "إنك تشبهين الصبيان". أو ربما تجد رأسين يعضان خدود بعضهما بعضًا، كالحيوانات الصغيرة أثناء القتال.

تريد الفتاة أن تعرف كيف تبادلا القبلات. فهل يا ترى ستجد رأسين يقبلان بعضهما، بالشفتين واللسان؟ لم تعد شفتاي "أنَّا" تتذكَّر قُبلاتها مع "توماس"، ولكن يدها اليُسرى تتذكَّر أنها أمسكت برأسه ذات يوم، ولم يتسنَّ لها أن تُحرِّك وجهه إليها.

تتذكر الفتاة قبلاتها معه في بداية علاقتهما، فقد كانت شفتاه ترتعشان، وكأنه يخشى القبلات لدرجة أنها تعجَّبت، كيف تُقَبِلهما "أنَّا".

متى كانت آخر قُبلَة بينكما يا "أنَّا"؟ منذ عشرين عامًا، أم عشرة أعوام، أم خمسة؟ منذ متى يا "أنَّا"؟

لقد قبَّلته "أنَّا" في إحدى المرَّات للمرَّة الأخيرة، دون أن تدري أنها آخر قُبلَة. لا تزال الفتاة تبحث عن رأسين يتبادلان القُبلات. أما "أنَّا" فتبحث في ذاكرتها عن آخر قُبلَة.

همست لها الفتاة قائلة:

- افتحي الدولاب!

حاولت "أنَّا" أن تستحضر قُبلاتها مع "توماس".

في صندوق القُبَّعات يُوجد رأسٌ يرتدي بيريه، أطلق عليها "توماس" اسم "قُبَّعة الفرنسيين"، ثم سمَّاها بعد ذلك "قُبَّعة الفرنسيات". ارتدتها "أنَّا" لسنوات عديدة، وكانت تواظب على شرائها مرَّة بعد مرَّة، إلى أن شعرت أنها لم تعد تليق بعمرها، فقالت له: "بعد بلوغ سن ما، لا تليق البيريه بالنساء، وحينها، تعود مرَّة أخرى لتصبح قُبَّعة الفرنسيين، لا الفرنسيات". إنها متأكدة من أن الرأس الذي يرتدي تلك القُبَّعة قد حظي بعدد لا بأس به من قُبلاته.

تذكَّرت كيف تردَّدت شفتاها قبل أن تلتقي بشفتيه لأول مرَّة. همست للفتاة قائلةً:

- أيتها الفتاة، كيف أصبحت شفتاه الآن؟

فأجابتها هامسةً:

- هل كانت شفتاه رفيعتين هكذا في الماضي؟ أم أنهما صارتا أرفع بحُكم السن؟

أدخلت "أنَّا" شفتيها إلى داخل فمها، وضغطت عليهما بأسنانها، قبل أن تشدُّهما أكثر إلى الداخل. شعرت شفتها السُّفلى بالشعيرات النابتة فوق شفتها العُليا. أرادت أن تلمس شعر الفتاة بشفتيها، فهل ملمسه أنعم من شعرها؟

قالت لها "أنَّا":

- تعالي هنا!

أرادت أن تمسك بهذا المخلوق الهوائي، وكلها ثقة في أنها ستنجح في ذلك، حتى ولو للحظة واحدة، وحينها، ستلمس جبينها، وشعرها، ولربما تشعر بدغدغة في شفتيها. قالت لها:

- كيف لي أن أمسك بك وأشعر بك أيتها الفتاة؟ ها أنا ذا قد أمسكت بكِ!

ولكنها اختفت.

كيف ظنت "أنَّا" أنها ستُمسك بها؟

جلست على الكرسي بجوار المدخل، بعد أن ألقت بحقيبة ظهرها على الأرض. لو كان "توماس" هنا، لسمع تلك الضوضاء.

لديها شعيرات بسيطة فوق شفتها العُليا، وثلاث شعيرات خشنة أسفل ذقنها. لا بد أن تذهب إلى مصففة الشعر كي تجد لها حلًّا.

ها هي الآن تجلس على الكرسي في المدخل المظلم المحاصر بالبُقع والظلال، تعرف كل معطف، وكل معطف، وكل حذاء. فالأحذية الرياضية بداخل صندوق في الرَّف الثالث أو الرابع على اليسار. وبجوارها، خزَّن "توماس" عددًا من معاطف المطر، منقوشًا عليها اسم المهرجان؛ فقد كان إحدى الوسائل التي لجأ إليها منذ عدَّة أعوام في فترة لم يشهد بها المهرجان قطرة مطر واحدة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

58

قال أخو "توماس":

- يُعاني هذا البيت من أعراض الشيخوخة.

فقد دعواه إلى بيت البحيرة أكثر من مرَّة، إلى أن لبَّى الدعوة أخيرًا. قال لهما:

- ينقصكما قارب، ومَرسى صغير.

شرح له "توماس" أن المنطقة بأسرها محمية طبيعية، فلا يجوز لأي قوارب أن تبحر هناك، باستثناء "قارب التنزُّه"؛ كما يُطلِق عليه السُيَّاح. وبعد أن تجوَّلوا معًا داخل البيت، قال لهما:

- إنه حقًّا بيتٌ جميل.

كان يقف منحنيًا بعض الشيء، في حين تشابكت يداه خلف ظهره. قالت له "أنَّا":

- أهلًا وسهلًا بك هنا في كل وقت، سنعطيك نسخة من المفتاح، كي تأتي متى شعرت بأنك في حاجة إلى الهدوء.

لامس الأخ ذراع "أنَّا" ثم صدره، عند موضع القلب، وقال لها:

- هذا لطفٌ كبيرٌ منكِ.

إلا أنه لم يأخذ المفتاح أبدًا.

أرادوا أن يجلسوا معًا في البلكون، ولكنها لم تتسع لثلاثة كراسي.

جلس الأخ على الحافة البارزة الملاصقة للسور، بينما أخذ "توماس" يُحدِّثه عن الجبال التي ظهرت أمامهما في الأفق. وبعدها، دخلا إلى حجرة الطعام، حيث كانت "أنَّا" تُعِدُّ المائدة، فقال لها الأخ:

- أحبِّذ أن أتناول الطعام في البلكون.

قال له "توماس":

- لن تشعر بالراحة هناك.

فقال الأخ:

- لا أطيق الجلوس في الغرف المغلقة، نصف الداكنة، وأفوِّت على نفسي نور الطبيعة بالخارج.

عاد إلى البلكون مرَّة أخرى، بينما أخذ "توماس" الصحون ولحق به.

لم تشعل "أنَّا" الأنوار، ظنًّا منها أن الإضاءة كانت كافية. أخذت الزبدة، وصحون السجق والجبنة من الثلاجة، ثم أخذت تراقب ظلال الأخوين، فقد بدت ثابتة، وبلا حراك؛ أيقفان هكذا دون أن يتبادلا الحديث؟ ألقت بعد ذلك نظرة على المائدة؛ هل أخذ "توماس" الصحون، أم أنها ما زالت هناك؟ وهل المفرش مُجعَّد، أم أنها مجرد ظلال مُنعكسة عليه؟ فقد لاحظت شكلًا داكنًا في منتصف المائدة، ثم اكتشفت، بعد أن أمسكت به، أنه قطعة من الخبز.

كان الوقت أمامهم طويلًا، ففي هذه الفترة من العام، يتأخر الغروب.

وفي المساء صحباه إلى أقرب محطة قطار، لأنه لم يشأ أن يقضي الليلة معهما. أومأ الأخ برأسه، وانحنى قليلًا وهو يُودِّعهما. نظرت "أنَّا" إلى الأخوين، بينما وضع كل منهما ذراعه حول ظهر

الآخر، دون أن تتلامس أجسادهما. مدّا رقابهما كي يتلامس الخدان، مثلما يمِدّ السبَّاح رقبته كي يتنفس الهواء أثناء العوْم، هكذا يتبادلان التحية؛ عند التلاقي وعند الرحيل.

وفي طريق العودة تساءل "توماس":

- لماذا نُصرُّ على بقائه معنا رغمًا عنه؟

كانا يسيران في طريق بمُحاذاة البحيرة، حيث أضاءت كشافات النور جهة من الضفة، فبرزت الأحجار البيضاء والسوداء بجوارهما طوال الطريق.

قالت "أنَّا":

- لا أظنه على ما يُرام.

أبعد "توماس" يده اليُسرى عن عجلة القيادة، فتأرجحت السيارة، ما اضطره إلى القيادة بيديه الاثنتين. قال لها:

- هكذا الحال دائمًا.

لم تفهم "أنَّا" معنى تلك الجملة، فهل تحمل في طيَّاتها بعض الأمل، بأن يتغير الحال قريبًا؟ أم أنها وسيلة للتعبير عن قلَّة الحيلة؟ أم أنه ينتقد كثرة انشغالها على أخيه؟ قالت له:

- أعتقد أنك إن سألته عن أحواله بشكل مباشر، فسنصل إلى نتيجة إيجابية.

أجابها:

- كلَّا! لماذا تنشغلين عليه هكذا؟ توقَّفي!

في تلك الليلة فتحت النافذة بعدما راح "توماس" في النوم، ثم استلقت بجواره على الملاءة البيضاء. كان هواء الليل باردًا. أخذت تنصت إلى السكون، وفجأة، بدأت تُدوِّي أصوات أنفاسه؛ بين الأنف والحلق، فاستدارت سريعًا وحاولت أن تنام قبل أن يعلو شخيره. وفي صباح اليوم التالي، وضعت رأسها على صدره وهي مُستلقية بجواره، بينما احتضنها وربت عليها.

قالت له:

- إنه يُمزِّق قلبي.

كانت تقصد أخاه. فقال لها:

- آمل أن تتحسَّن أحواله في القريب العاجل.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

59

قالت "أنَّا" لصديقتها:

- مع حلول عيد الفصح كل عام يغمرني الحماس لزيارة بيت البحيرة. ففي السنوات الأخيرة، صار هو المكان الوحيد الذي أشعر فيه أننا معًا.

سألتها صديقتها:

- كيف الأحوال بينكما الآن؟

استشعرت "أنَّا" من نظرات صديقتها أنها تترقب سماع آخر المستجدات حول نزوته. قالت "أنَّا":

- أفكر جديًّا في السفر إلى والدتي.

- هل ساءت أحوالها؟

- لا أعلم. فقد سمعت عبر الراديو تقريرًا حول مرض "ألزهايمر". ومنذ فترة وأنا ألاحظ عليها بعض التصرفات التي كنت أُرجعها إلى كبر سنِّها، ولكني أخشى الآن أن تكون أعراض المراحل الأولى من المرض.

حاولت صديقتها أن تطمئنها قائلة:

- بالتأكيد، هناك فحوصات معينة للتأكد من ذلك.

- عليَّ أن أفكر في طُرُق لمتابعة حالتها من هنا؛ من النمسا.

- هل تفكرين في العودة إليها؟

- كلَّا، لن أعود إلى فرنسا. فلن تقبل أي مدرسة حكومية أن توظفني. لن أعيش هناك سوى حياة الفقر.

- هذا إن لم تحصلي على حقوقك المادية بعد الطلاق.

- ليست لي أي حقوق مادية. حتى وإن تمكنت من إثبات خيانته لي، فسيبوح في المحكمة بأنه لم يُضاجعني منذ سنوات، وسأضطر إلى أن أبحث عن أدلَّة كي أثبت تكرار خيانته لي عبر السنين، ستتحول الجلسة إلى مناظرة لإثبات انعدام الحب والوفاق بيننا.

- تتحدَّثين وكأنك قد استشرتِ أحد المُحامين. مع من تحدَّثتِ؟

- توجَّهت بالفعل إلى أحد المكاتب الاستشارية.. لن أتمكن من العودة إلى فرنسا. لا أحد هناك سيقول لي إنه يحب لغتي، على الرغم من أنه لا يتقنها. هكذا صارت حياتي، فقد تعودت على تلك الكليشيهات الجميلة.

- أضحكتِني، ولكن دعينا من المزاح الآن، إلى متى ستؤجلين التحقق من خيانته؟

- أعلم أنني لن أحصل بأي حال من الأحوال على بيت البحيرة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

60

شعرت "أنًّا" منذ فترة بأن الفتاة تريد أن تتعرف على ذوقها في الملابس. في أحد الأيام، تركت باب حجرتها مفتوحًا على مصراعيه، وأخذت تراقب دولابها من الداخل، حيث وجدت بعض البلوزات مُلقاة بعشوائية، فيما كانت القمصان الداخلية مُتكدِّسة فوق بعضها، أو متروكة أسفل الدولاب. تخيَّلت "أنًّا" الفتاة، وهي وحدها في البيت، تقف أمام هذا الدولاب لفترة طويلة حتى تقرر ما سترتدي. أحيانًا تختار الملابس الأنيقة؛ فهكذا تتخيَّل "أنًّا" وهي تخرج مع "توماس" لتناول الطعام برفقة الأصدقاء وزملاء العمل. فهي لا تدرك أن "أنًّا" لم تعد ترافقه في لقاءاته مع زملائه منذ سنوات.

وقع اختيار الفتاة على بلوزة خضراء، ولم تع أنها من الحرير الصناعي. ثم اختارت معها البنطلون الرمادي الداكن الذي وجدته مُلقى أسفل الخزانة، فهو يحتاج إلى الكيِّ.

لم تشأ "أنًّا" أن تُنظِّم دولابها، فأغلقت بابه وذهبت إلى المدخل كي تفحص الأحذية؛ هل ارتدتها الفتاة أيضًا؟ وقعت عيناها على الحذاء الأسود ذي الكعب المتوسط، الذي يتماشى جيدًا مع البنطلون الرمادي. ثم وجدت الأحذية مُتراصَّة بنظام بجوار بعضها. وما إن شعرت ببعض الشد العضلي في ذراعها اليُسرى، حتى ظهرت أمامها الفتاة على عتبة المطبخ.

لا بد أن تغلق غُرفتها جيدًا قبل أن تترك المنزل.

انتقل الشد العضلي إلى ظهرها، واختفت الفتاة.

لا بد أن تغلق أبواب الحمَّام والمطبخ وحجرة المعيشة أيضًا، كي تحبسها في غُرفة واحدة، فالفتاة هزيلة، ولا تقدر على فتح الأبواب بنفسها، ولكن إن واظبت "أنًّا" على حبسها في غُرفة واحدة يومًا بعد يوم، فستتعلم الفتاة كيف تفتح الأبواب بنفسها، وفي الخطوة التالية، ستفتح باب المنزل، وبعدها، ستزداد قوتها، وستقدر على فتح بوَّابة المبنى، كي تتسكَّع بداخله متى تشاء. ربما تأخذ معها القطة ويتسلَّلان إلى بيوت الجيران. فقد سمعت "أنًّا" من قبل أن القطط تترك بيتها، إن لم ترضْ عن الوجبات التي تُقدَّم إليها. وحينها، سيعثر عليهما أحد الجيران، ويعيدهما إلى "أنًّا"، بعد أن يشكو لها من عثوره على هذين المشاغبين في منزله. ستفتح الفتاة فمها باندهاش، بينما ستمر القطة بجوار ساقيها إلى داخل البيت، قبل أن تختفي. وسيتعيَّن عليها أن تُخفي مشاعر الارتباك أمام الجار، وتعده ألا يتكرر ذلك الموقف ثانيةً.

جلست "أنًّا" في المطبخ بعد أن اجتاحها التعب. كم تريد أن تحبس الفتاة داخل إحدى الغُرف، ولكن ما باليد حيلة.

ما إن تنتابها تلك التشنجات العضلية، حتى تشعر بوجود الفتاة في غضون لحظة واحدة، ولكنها سمعتها تبكي هذه المرَّة، وكان بكاؤها أشبه بالصفير الذي يصدر من مواسير المياه. شعرت وكأن الصوت يُدوِّي من الحائط، وكأنها ستجد دموعها خلف الطلاء. أخذت تفحص الحائط، حتى وجدت موضعًا غير مُتساوٍ بجوار النافذة، فقالت بصوت مسموع:

- لا بد أنكِ هنا!

سكتت الفتاة، فلم تعد "أنّا" تسمع صوت بكائها. وبعد لحظات، أخذت تضحك، ولكن "أنّا" لا تتحمل ضحكاتها التي تشبه الخبط، فهي تفضل بُكاءها، الذي يشبه النُّواح.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

61

تشعر "أنَّا" بتلاميذها؛ فهي تُلاحظ على الفور إن كان أحدهم يمرُّ بوقتٍ عصيب، أو يحمل همًّا. وهي تؤمن بأن العزف على البيانو يساهم في تجاوز تلك الحالة. دائمًا ما تقول:

- إن طلابي يحبون "سوناتا ضوء القمر" لـ"بيتهوفن"، فهي تُعبِّر عن أوجاع الصِّبا. كما أنني أُعلِّمهم ألا ينقروا على البيانو دون أن يستسلموا لمشاعر المقطوعة الموسيقية ويخضعوا لها.

فهي تجد في ذلك الشفاء من كل ضيق ومحنة.

قالت لصديقتها:

- صرت أشعر مؤخرًا بأنني لا أفقه شيئًا عن الأطفال الصغار.

فقالت لها صديقتها:

- تظنين ذلك فقط بسبب ابتعادك عن تلاميذك هذا العام. لماذا لا تعطين دروسًا خاصة؟

- أتقصدين أن أستضيف التلاميذ في بيتي، ليعزفوا على البيانو الخاص بي؟

- صحيح، نسيت أن أسألكِ.. هل استعنتما بخادمة؟

- ينظف "توماس" البيت بنفسه من حين لآخر.. هكذا يخبرني، ولكنني لا أصدقه.

في صباح أحد الأيام تركت "أنَّا" المنزل، ثم عادت إليه مرَّة أخرى لكي تُلقي نظرة على حجرة المعيشة، فرأت القطة وهي تجلس على حرف النافذة. وقعت عيناها على الباركيه اللامع الذي انعكست عليه أنوار الصباح الباكر. لم تجد أثرًا لكتل الغبار، ما جعلها تلقي نظرة على البيانو، فوجدت على غطائه بصمات أصابع؛ قد تكون أصابعها، أو أصابع الفتاة، كما وجدت عليه أيضًا آثارًا لكف القطة. وبعدها، ذهبت إلى الحمَّام، حيث وجدت المرحاض نظيفًا، والبلاط ممسوحًا. فقد خلا البيت بالكامل من الأتربة. أما في المطبخ، فكان حوض الغسيل خاليًا من آثار المياه والجير، بينما لمعت الصحون والأواني. ولكنها عندما توجهت إلى حجرتها، وجدت بعض الأتربة المتراكمة على الحواف. حسبت أن "توماس" قد أعطى مفتاح البيت في غيابها لإحدى الخادمات، كي تنظف البيت، ثم رحل، وتركها وحدها؛ إنه حقًّا تصرف متهور وطائش، كما يُتيح الفرصة للفتاة كي تعبث في أرجاء المنزل، فتتمشَّى بجوار الخادمة، وتصدر أصواتًا كما تفعل مع "أنَّا"، ولكن الخادمة المسكينة لا تعلم شيئًا عن الضحكات التي تصدر من الحائط، ولا أصوات الدَّقِّ على الباركيه، فبالتأكيد سيجتاحها الفزع، تمامًا مثل "أنَّا" التي تشعر بالخوف على الرغم من إدراكها وجود الفتاة في البيت. لم يفكر "توماس" في المشاكل التي يمكن أن تلحق بهما بسبب وجود شخصٍ غريب في البيت. إنها لا تستبعد أن يكون قد أحضر الفتاة ليدَّعي بعد ذلك أنه لا يعرفها شخصيًّا.

لطالما تمنَّت "أنَّا" أن تقتني قطة، ولكنها تدرك أنها تهمل قطتها ولا تعتني بها بالقدر الكافي، على الرغم من أنها قطة مُطيعة، ولا تترك الفتاة. صارت "أنَّا" تحرص على العودة بعد الظهيرة، كي لا تتركهما وحدهما فترة طويلة. ولكنها تشعر بمقاومة، عندما تحاول أن تفتح باب المنزل، لدرجة أنها كثيرًا ما تخشى ألا تتمكن من الدخول. وبينما تخلع معطفها، تتَّكئ الفتاة على باب حجرة "توماس" وتنهال عليها بهمسات اللوم والعتاب، بينما تخاصمها القطة، وتجلس وحيدة عند النافذة.

لم تكن غَرفة "توماس" مغلقة، فلا بد أن الترباس لم يكن مُحكمًا. هل نظفتها الخادمة أيضًا؟ دخلت إليها، ووجدت على الأريكة غطاءين مفرودين، وكانت الوسادات منفَّضة، كما وجدت كوبًا من الماء على المائدة الصغيرة. أما على المكتب، فتراكمت الأكوام على الجانبين. لم تجد سوى فراغ صغير في المنتصف.

ظلَّت واقفة أمام المكتب، حيث وجدت بين الأكوام حزمة سميكة من الأوراق مربوطة معًا. قرأت على الغلاف: „السيدة ..." دون اسم محدد، ومن أسفل: „سيناريو فيلم قصير".

جلست على الكرسي ونظرت حولها، وكأن شخصًا آخرَ معها في الغُرفة. ثم أخذت تفتح أدراج المكتب واحدًا تلو الآخر، ومع كل مرَّة كانت تتردد وتنظر خلفها. أغلقت بعض الأدراج فور فتحها، بينما مرَّت بأصابعها سريعًا بين الأوراق المُكدَّسة داخل الأدراج الأخرى. ثم نهضت، وتوجهت إلى الرفوف، حيث وجدت ملفات سميكة، وبضع كراتين، فتحت غطاءها، ثم أعادت إغلاقها. وبعد ذلك، توجهت إلى السرير، حيث أخذت الوسادة، وهزَّتها بقوة، قبل أن تعيدها إلى مكانها مرَّة أخرى، وتُخبِّط عليها بقبضة يدها، كي تعود إلى ما كانت عليه. وبعدها مسحت بيدها على الملاءة، ثم نظرت حولها وخلفها إلى أن تركت الحجرة. وأخيرًا، أغلقت الباب، واتَّكأت عليه من الخارج.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

62

طلبت "أنَّا" زجاجة نبيذ، وقرَّرت أن تعود إلى البيت بعد أن تشربها.. "فلتشرب بعض الشجاعة"، سمعت هذه المقولة لأول مرَّة تعبيرًا عن الرجال الذين يخشون العودة إلى زوجاتهم في البيت. فالفتاة والقطة ينتظرانها في المنزل، حيث تجلسان معًا بجوار النافذة، بعد أن اتفقتا على عدم إثارة الشغب. رفعت الفتاة ساقها وأسندت ذقنها على رُكبتها، وتركت ساقها الأخرى تتأرجح وتصطدم بالمدفأة. تألف "أنَّا" هذا الصوت جيدًا، فهي أحيانًا تسمعه ليلًا. إنه ليس صاخبًا، بل هو أشبه بالصدى البسيط. وعندما تسمعه، لا تنهض من السرير، وتظل تنصت إليه. أحيانًا تتباعد الدقات عن بعضها لدرجة تجعلها تفقد التركيز. وقبل أن يتسلَّل إليها النوم، ترنُّ في أذنها دقة خافتة، ولكن خبيثة، فتستدرج تركيزها مرَّة أخرى. كلما كانت الخبطات خافتة، كانت أكثر وضوحًا. أحيانًا تستيقظ من النوم، وتظن أنها سمعت ذلك الصوت، فتنتظر الدقة التالية، ولكنها أبدًا لا تأتي. فالفتاة صبورة، وتعرف جيدًا كيف تحرمها من النوم. في أحد الأيام وجدت أن أجزاءً من الطلاء سقطت أسفل المدفأة، وتيقَّنت أنه بسبب دقَّات الفتاة.

ماذا عن "توماس"؟ هل يسمع تلك الأصوات أيضًا؟

نهضت „أنَّا" ولم تجد شيئًا بجوار النافذة، فمرَّت بجوار حجرة „توماس" المُغلقة، وتوجَّهت إلى المطبخ. سمعت صخبًا من الباركيه، على الرغم من أنها وطئت عليه برفق، وتخطَّت قدماها ذلك الموضع بين المدخل والمطبخ، الذي يُحدِث الضجيج.

يقع باب غُرفة التخزين على الناحية الخلفية من المطبخ، حيث تتلاقى الحوائط بزاوية جانبية. يُسمِّي „توماس" تلك المنطقة „الركن الميِّت". ففي هذا الركن الميت مدفأة ونافذة داخلية تطلُّ على المطبخ. وهناك، على الحافة الصغيرة للنافذة، جلست „أنَّا" ورفعت إحدى قدميها إلى أعلى، كي تتَّكئ عليها، بينما أخذت تؤرجح ساقها الأخرى، وتنقر على المدفأة. لم تُحدِث صوتًا عاليًا، بل مجرد رجفة بسيطة. أسندت يديها على حافة النافذة، ونظرت إلى الأسفل، حيث وجدت أنها على بُعد مسافة معقولة من الأرض، ثم نقرت بقدمها على المدفأة، مما تسبَّب في اهتزازها بقوة. وبعد ذلك، وضعت ذقنها على رُكبتها، كي تتجنَّب النظر إلى بُعد مسافتها عن الأرض، حيث تتدلَّى ساقها الأخرى، التي أخذت تؤرجحها دون أن تدُقَّ على المدفأة في كل مرَّة. وأحيانًا كان يصدر صدى صوت بسيط.

لا بد أن „توماس" نائم، أو أنه لا يريد أن يترك حجرته. أما قطتها، فتستلقي تحت الأريكة، وتفتح عينيها الحمراوين في الظلام. دقَّت قدم „أنَّا" على المعدن مرَّة أخرى، ثم أخذت تتأرجح ببطء، إلى أن توقَّفت وصارت تتدلَّى بلا حراك، وبعدها، نزلت إلى الأرض.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

63

في الماضي كانت "أنَّا" تحب أن تعزف البيانو ليلًا، فكانت تستخدم الدوَّاسة التي تكتم الصوت، لتعزف مقطوعة "جاسبار الليل" لـ"را□يل"، فهي تحب بالأخص الجزء الثاني من تلك المقطوعة، والذي يحمل اسم: "المشنقة". في بعض النغمات، كانت تحب أن تترك أصابعها على المفاتيح لفترة أطول، ولكنها بشكل عام، تحب أن تعزف النغمة الرئيسية بدقَّة، بينما تتنقل في عزفها للنغمات الفرعية بين الطبقات الموسيقية المختلفة، لتختم المعزوفة بنقرة قوية على مفاتيح البيانو، ثم تتبعها بأخرى.

دائمًا ما تستخدم كاتم الصوت مع هذه المقطوعة، لأنها دائمًا ما تعزفها ليلًا، فهي لا تتماشى مع الصباح، فموسيقى الليل لها سماتٌ خاصة، حيث يتباطأ فيها الإيقاع، ويفصل السكون بين تتابع نغماتها المكتومة. وفي الليل، لا توجد أصواتٌ تؤثر على ذلك السكون.

وقفت أمام البيانو، وكان الغطاء مغلقًا كعادته. لو فتحته وجلست أمامه كي تعزف، لن يترك "توماس" حجرته، فهو لا يُقاطعها أبدًا أثناء عزفها. أقصى ما يفعله، إن كان جالسًا بمكتبه، هو أن يفتح الباب قليلًا، كي يستكمل كتابة السيناريو على أوتار عزفها. فتسمع هي صوت مقبض الباب، ثم خطواته التي تعود إلى المكتب.

حرَّكت يدها اليُمنى وراء رقبتها، فلامست إصبع السبَّابة شعرها، في ذلك الموضع الذي تحُكُّ فيه كثيرًا، ويُكوِّن طبقة قشرية. أخذت تُنظِّم النوتات الموسيقية وتُدخلها في حوافظ شفافة، كي تُعيدها إلى الرَّف، بينما خرج „توماس" من حجرته، وسألها:

- هل توقَّفتِ عن العزف؟

عندما التفتت إليه، وجدته ينظر إلى يديها. فإذا بيدها اليُمنى تمسك بالورق بقوة، لدرجة أن إصبع الإبهام كادت تُحدث ثُقبًا بها. استطرد قائلًا:

- لم أعد أراكِ تعزفين أبدًا.

أمسكت اليد اليُسرى بورقة النوتة الموسيقية، كي تُغلِّفها بمعاونة اليد اليُمنى. قالت له:

- لم تعد تمكث في البيت أبدًا.

سألها:

- وماذا عنكِ؟ هل تمكثين في البيت؟

أمسكت يدها اليُمنى بالحافظ الشفاف ونقلته إلى اليد اليُسرى، بينما أمسكت الورق باليُمنى. رفعت بصرها إليه، وشعرت بالكلمات تتراكم في حلقها. أما يداها، فاستمرَّتا في العمل على إدخال الورق داخل الأغلفة، ولكنهما واجهتا بعض الصعوبة، بعد أن أبعدت "أنَّا" بصرها عنهما ووجَّهَته إلى "توماس". قال لها:

- عليَّ أن أغادر الآن.

فقالت له:

- أرأيت؟ لا يمكنني أبدًا أن أبدأ في الكلام. دائمًا يجب أن ترحل. ولهذا السبب تحرص دائمًا على الوقوف بجوار الباب، كي ترحل سريعًا.

سألها:

- ماذا تقصدين بهذا الكلام؟ ما هذا الهراء؟

وقفت "أنَّا" أمام البيانو. كانت جميع أغراضها مُرتَّبة، حيث وضعت على الأرفف ملفات سميكة، تحوي حوافظ شفافة، ونوتات موسيقية. كما رتَّبت مجلدات المقطوعات وفقًا لدرجة الصعوبة واسم العازف. وخصَّصت رفًّا لشرائط الكاسيت، التي كانت تُسجِّل عليها المقطوعات، كي يستمع إليها تلاميذها في البيت. متى توقَّفت عن تلك العادة؟ منذ عشرة أعوام، أم خمسة عشر؟ فالطلاب صاروا يجدون المقطوعات بسهولة على الإنترنت.

عاود "توماس" سؤاله مرَّة أخرى:

- ماذا تقصدين بهذا الهراء يا "أنَّا"؟

كانت بعض الأوراق مُبعثرة، ولكنها الآن رتَّبت الأرفف جيدًا. أخذت تبحث عن النوتة الموسيقية الخاصة بـ"جاسبار"، ثم وضعتها على لوح النوتة أعلى البيانو. إنها حقًّا معزوفة جميلة. شكَّل انعكاس الظلال على البيانو ثقوبًا تُضيئُها شموعٌ غير مرئية، وكأن هناك شبحًا يخرج الشرر من عينيه. أخذت تقرأ الجزء الثالث من المقطوعة، وهو الأكثر صعوبة، فرنين المقطوعة قوي، وطبقاتها الموسيقية عالية.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

64

شعرت "أنًّا" في الليل، وكأن قدمًا صغيرة تدُقُّ على المدفأة.

ذكَّرتها الدقَّات بصوت "إطار النافذة"، عندما تتخبَّط فيه الرياح. فهو مشبوكٌ بالحائط الخارجي، ولا يتحرك إلا بقدر طفيف. ولكن عندما تهُبُّ العواصف وتصطدم به، تُصدِر صوتًا صاخبًا، ورجَّة قوية. إن كلمة "إطار النافذة" هي إحدى الكلمات التي أساءت فهمها في البداية، إذ كانت تستخدمها بدلًا من كلمة "مصراع النافذة". كثيرًا ما كان والداها ينسيان إغلاقه عند هطول الرياح، فيضطر أحدهما أن ينحني خارج النافذة ويصارع العواصف كي يغلقه؛ ما كان يتخلله قدرٌ من الخطورة.

في طفولتها، عندما كانت تسمع دقَّات الرياح على النوافذ، كانت لا تنهض من فراشها، ولكن إذا تباعدت الدقَّات، كانت تجد نفسها أسيرة بين النوم واليقظة، فتتَّجه إلى فراش والديها الكبير لتنام عليه، بعد أن تعِدها والدتها أن يلحقا بها على الفور، ولكنها كانت تروح في النوم في غضون لحظات، لتستيقظ بعد فترة، دون أن تجدهما بجوارها. ولأن سريرهما عالٍ، لم تكن تصل قدماها إلى الأرض، فكانت تتزحلق من حافته كي تبدأ البحث عنهما. وما إن تطأ بقدميها على الأرض، حتى تهُبَّ الرياح مرَّة أخرى، وتقرع بقوة على النافذة، فتعود راكضة كي تختبئ تحت الغطاء. أحيانًا كانت تظل على فراشها، وتضع رأسها بجوار الحائط الذي يفصل بين حجرتها والمطبخ، ولكنها لم تكن تسمع أصوات والديها، ولا حتى أصوات الفناجين؛ فقط قرعت الرياح النافذة. ولذلك كانت تُكوِّر نفسها تحت الغطاء، في منتصف السرير، وتنتظر إلى أن تمضي العاصفة، بعد أن تفقد الأمل في العثور عليهما.

إن أصابها الصداع، وشعرت بأنها في حاجة إلى الراحة والظلام، تشكو لـ"توماس" قائلةً:

- لماذا لا يوجد لدينا "إطارٌ للنوافذ"؟

فيُجيبها، وقد فهم مقصدها:

- إذا أغلقْت مصراع النافذة، سأشعر أنني مدفونٌ في قبري.

أما "أنًّا" فكانت تشعر بالاختناق من الستائر الثقيلة التي تمتلئ بالأتربة.

في الماضي، عندما سكنت معه، صمَّمت على تبديل لون الستائر بألوان فاتحة.

عندما يعمُّ الظلام، يظهر انعكاس أضواء السيارات في أركان حجرة المعيشة. أما أعمدة النور، التي تنتهي أسفل النوافذ، فهي ترسم دوائر مُضيئة على السقف.

ركَّب "توماس" في حجرة النوم تلك الستائر السميكة، التي نسحبها من أعلى إلى أسفل، ولكن "أنًّا" لم تُسدلها منذ فترة طويلة.

جلست على سريرها، واتَّكأت على الحائط، حيث تسلَّلت البرودة عبر شعرها، ووصلت إلى رأسها. فقد توقَّفت دقَّات المدفأة. ولم يوجد أثرٌ لأي عاصفة، أو ريح. توسعَّت رئتاها مع كل شهيق، وأخذت عيناها تتأقلمان مع ظلام الليل. وفجأة، وقعت عيناها على ظل الفتاة، بجوار النافذة. كانت كالخيال خلف الستارة البيضاء، حيث وقفت باستقامة، وبدت كبيرة الحجم. حاولت "أنًّا" أن ترخي الجزء العلوي من جسدها، فأسندت يديها على المرتبة، بينما حرَّكت ساقيها تحت الغطاء. لم تلحظها الفتاة، فقد كانت ساكنة وثابتة، بين النافذة والستارة، حيث تبدَّل لونها من الأسود إلى الرمادي الداكن.

وفجأة، نهضت "أنّا" من السرير، بدت هي أيضًا سوداء، وسط عتمة الحجرة. لم يُصدِر الباركيه أي صوت وهي تقترب من الفتاة، إلى أن وقفت خلفها، بزاوية جانبية. وبسرعة شديدة أزاحت بالذراع اليُمنى الستارة، بينما أمسكت اليُسرى بالفتاة. لم يكن سهلًا عليها أن تظل مُمسكة بها، فقد كانت الفتاة مثل الحيوان المُرتبك. التصق الجزء العلوي من جسد "أنَّا" بظهر الفتاة، وشعرت بكتفها على صدرها، فتقوَّست بعض الشيء وهي تمسكها، وحاولت أن تُحكِم قبضة يدها. وبعد ذلك، رفعتها بصعوبة إلى أعلى، ثم ألقت بها على لوح النافذة، وأخذت تدفعها بكل قوتها إلى الخارج، ولكن الفتاة مدَّت ذراعها إلى الداخل، وأمسكت بذراع "أنَّا" اليُسرى. وعندها، انتفضت "أنَّا" وحاولت أن تُحرِّر ذراعها كي تتركها تسقط. وبالفعل، سرعان ما استعادت رباط جأشها، ودفعتها بقوة إلى الخارج، حتى سقطت أخيرًا.

وبعدها، أغلقت النافذة، وأسدلت الستارة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

65

فتحت "أنَّا" باب الحمَّام في الصباح، ووجدت "توماس" أمام الحوض، فأبعدت بصرها عنه، قبل أن تغلق الباب مرَّة أخرى، واعتذرت له بالفرنسية:

- آسفة.

تبيَّن من صوتها أنها أول كلمة تنبس بها في ذلك اليوم. ذهبت إلى المطبخ لتغلي الماء، ثم أحضرت ماكينة القهوة، ووضعت المصفاة في مكانها، ثم سكبت عليها البُن. عرفت يداها على الفور أن المصفاة على يمين الثلاجة، وأن علبة البُن بجوار الحوض؛ هكذا بمنتهى العفوية تحرَّكت يداها، لا شك أنهما تتذكَّران الألحان جيدًا، وتمتنعان عن العزف عمدًا.

عندما خرجت من الحمَّام كان "توماس" يقف في منتصف المطبخ حاملًا فنجانه، بينما يتأمل الفناء الداخلي خلف النافذة. سألته:

- أما زلت هنا؟

تنحَّى جانبًا، لأنه كان يقف في منتصف الطريق. وقال لها:

- عذرًا.

سكبت قهوتها، وتوجَّه هو إلى الثلاجة، ثم ابتعد ووقف عند عتبة الباب، وبعدها، اقترب من المائدة، وأخذ التليفون المحمول، ووضعه في جيبه، ليعود مرَّة أخرى إلى العتبة. قال لها:

- لم أنم جيدًا، غفوت في وقتٍ متأخر.

سألته، بينما بحثت عن عبوة السكر:

- لماذا؟

وَجَدَت فوق الثلاجة أكياس السكر الصغيرة، التي تأخذها من الكافيه. عرضت عليه واحدة، ولكنه رفضها لأنه لا يعرف الشركة المُصنِّعة. ثم سألها:

- ماذا عنكِ؟ هل نمتِ جيدًا؟

أخرجَت الملعقة الصغيرة من فمها، وقالت:

- لم أتناول قهوتي هنا منذ فترة طويلة. فقد اعتدت أن أحتسيها في الخارج.

- هذا أمرٌ جيد.

- لماذا؟

أخذ رشفته الأخيرة، ثم سألها:

- هل تكفيكِ النقود؟

فأجابته:

- لا أعلم.

اقترب "توماس" منها؛ لأنه أراد أن يضع فنجانه داخل الحوض، الذي اتَّكأت عليه. وقفا أمام بعضهما بعضًا، إلى أن مدَّت له يدها، وأخذت الفنجان. قال لها:

- لقد تأخَّرت.

ثم أخذ يبحث عن تليفونه المحمول داخل جيبه، وبعد أن ارتدى المعطف والحذاء، ألقى نظرة أخيرة على المطبخ، قائلًا:

- أتمنى لكِ يومًا سعيدًا.

تباطأ في تركه للمنزل.

أنصتت إلى أصوات خطواته على السلم، وعندما سمعت بوَّابة المبنى تنغلق، حملت حقيبة ظهرها، ثم أخذت بعض النقود من العلبة الصفيح على رَفِّ المدخل. فالنقود في تلك العلبة مخصصة لمستلزمات البيت وحالات الطوارئ. يواظب "توماس" على إعادة ملئها، بينما تنفقها "أنَّا". لا بد أنه لاحظ أنها تفرغ سريعًا، لأنه صار يضع بداخلها مبالغَ أكبر. وبجوار العلبة، توجد مجموعة من الإيشاربات مُعلقة فوق بعضها. أخذت واحدًا لا ترتديه إلا نادرًا، لأن نسيجه رقيق، ويمكن أن يتفكَّك مع أبسط خدش، فهو مناسب لأمسيات الصيف.

كانت صديقتها قد عرضت عليها أن يسافرا معًا في الصيف لأي مكان، بعد أن ينتقل ابنها إلى سكنه الخاص.

وفي الكافيه خلعت الإيشارب، ووضعته أمامها على المائدة. وأخذت تفكر في قطتها. لا بد أن تجد من يهتم بها أثناء سفرها، و"توماس" لن يقدر على تحمُّل مسؤوليتها.

عندما تسافر سيدعو "توماس" امرأة شابَّة إلى البيت، وستختفي القطة، كعادتها، عندما يدخل البيت ضيفٌ غريب. ستجلس المرأة في حجرة المعيشة، بينما يتوجَّه هو إلى المطبخ. أما الفتاة، فستترك القطة في مخبئها، وتذهب إلى حجرة المعيشة كي تُصدِر أصواتها، وتُربِك المرأة، التي ستظل تنظر حولها، إلى أن تنهض من مكانها. وبعد ذلك، ستتسلَّل الفتاة إلى جوارها، فقد تعلَّمت من القطة فن الحركة بسكون. وستظل تراقبها بحذر واحتراس، بعد أن خرجت من موبايل "توماس" الذي وضعه على مائدة الطعام. سيعود "توماس" من المطبخ حاملًا كأسين من النبيذ، كي يجلسا معًا بعد أن حلَّ المساء، في تلك الأجواء الصيفية، التي يشعُّ فيها نور الشمس مباشرة في حجرة المعيشة.

وبينما تنصت الفتاة إلى حديثهما، ستروقها تلك المرأة الشابة شيئًا فشيئًا. تريد المرأة أن تفتح النافذة بعد أن أخذت رشفة من كأسها، كي يتسلَّل هواء المساء العليل إلى الحجرة. لا يُزعجها طنين الترام، فهو يُذكِّرها بإحدى الروايات التي قرأتها في الماضي. ستجلس الفتاة على الأريكة بجوار المرأة، التي وضعت يدًا على النسيج الكتاني، بينما حملت كأسها باليد الأخرى. ستُدير المرأة رأسها ناحية النافذة، حيث يُدوِّي رنين الترام، وستقترب منها الفتاة أكثر وأكثر، بعد أن شعرت بالانجذاب إليها، وسيصرف "توماس" بصره عن النافذة ويوجهه إلى تلك المرأة الجذابة، فهو لم يعد يرى سواها.

أحضر النادل القهوة، بينما أعادت "أنَّا" الإيشارب فوق كتفيها مرَّة أخرى.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

66

قال "توماس":

- يا فتاتي، أتذكَّر عندما كُنتُ في جنوب فرنسا، منذ ما يقرب من مئة عام، حيث زُرتُ قرية يكسو أراضيها اللون الأحمر المُشعُّ. أشعر في ذاكرتي وكأنني قضيت هناك أسابيع لا نهائية. كنت أتنزَّه كل يوم في طرق جديدة، وأجلس مع حلول المساء في المطعم الوحيد الذي يطل على الميدان الرئيسي، تحت شجر الدلب ذي الجذوع المُلطَّخة. كان كبار السن يجلسون على الدكك، بينما يقف الآباء والأمهات معًا في مجموعات. أمَّا الأطفال، فكانوا يركضون هنا وهناك، أو يلعبون على الحصى. كل مساء كنت أتحدث مع النادل، فلم أكن أتمنَّى صُحبة أفضل من ذلك الشاب اليافع. قالت له الفتاة:

- ولكنك لا تتحدث الفرنسية.

جلس "توماس" والفتاة تحت شمس الربيع، حيث حمَتْهم الأسوار العالية من الرياح الباردة. قال لها:

- ألا تعرفين أننا يمكن أن نتحدث مع العاملين في أي مكان بأي لغة.

عندما حكى عنه لـ"أنَّا"، في إحدى تلك الأمسيات، قال لها:

- إنه ليس "نادل"، بل صاحب المطعم، فقد ورثه عن جدوده.

كانا يحتسيان معًا النبيذ هناك، ويتأملان الأجواء من حولهما، ويراقبان الأطفال بين الحين والآخر. فبعض الآباء لا ينتبهون إلى أبنائهم، وينشغلون عنهم، وبعض الأطفال يتعمَّدون الهرب من انتباه آبائهم لهم، إلى أن ترتفع صرخاتهم بعد أن يلحق بهم مكروه ما. اقترح عليهما صاحب المطعم الشاب أن يزورا قصرًا على مقربة من المكان في رحلة صباحية، حيث قال:

- يمكنكما بعدها تناول الطعام هنا، فسنشوي غدًا خنزيرًا بريًّا.

أشار برأسه في اتِّجاه "توماس"، وسأل "أنَّا" بالفرنسية:

- هل يتحدث زوجكِ الفرنسية؟

فأجابته بالنفي.

كان "توماس" يراقب غُلامَيْن في محاولتهما اصطياد حيوان ما، بينما سألها صاحب المحل:

- أي لغة يتحدث؟

أجابته، وهي تعلم أنه سيندهش أيًّا كانت الإجابة:

- الألمانية.

سألت الفتاة "توماس":

- هل سبق أن زُرتَ اليونان؟

أجابها بالإيجاب، فسألته:

- متى كانت آخر مرَّة؟

فأجابها:

- منذ بضع سنوات، فأحد أصدقائي كان يمتلك بيتًا هناك.

تذكر "توماس" صديقه هذا، ورآه أمامه يرتدي قميصًا أبيضَ، ويجلس أمام المائدة الخشبية الكبيرة، ولكنه لم يتذكَّر اسمه. ربما مضى وقتٌ أطول مما يعتقد، فقد اكتشف أنه لم يعد يعرف عنه شيئًا منذ تلك الزيارة. سألته الفتاة:

- وقت الأزمة؟

- ماذا؟

- أقصد هل زُرتَ اليونان في فترة الأزمة الاقتصادية؟

كان "توماس" شاردًا يحاول أن يتذكَّر اسم صديقه، هل كان "ألفرد" أم "ألبرت"؟ ربما كان اسمه "بيتر"، أو "هانز". شعر وكأن هناك ثُقبًا في ذاكرته. فكلما خطر بباله اسمٌ ما، استشعر أنه يألفه، ليكتشف في اللحظة التالية أنه غريبٌ عليه. لم يعرف في حياته شخصًا يُدعى "ألبرت".

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

67

اشترت "أنَّا" زهور النرجس البري احتفالًا بعيد الفصح، حيث وضعت باقة على مائدة الطعام، وأخرى في المطبخ. قال لها "توماس":

- لا تنسي أن تزوري والدتكِ.

تفاجأت لأنه انتبه إلى ذلك، فهي لم تتحدث معه حول هذا الموضوع. قال لها:

- خطَّطْت لإجازة نهاية الأسبوع منذ فترة، ولن أتمكَّن من إلغاء مواعيدي. سأعود يوم الإثنين.

وفي أحد الفصح، غيَّرت "أنَّا" المياه للنرجس، ثم أضافت باقة ثالثة في حجرة المعيشة. ظلَّت في المنزل، في انتظار مُكاملة والدتها. كانت الشمس مشرقة، والهواء باردًا، فالجو مناسبٌ للتنزُّه. فتحت عبوة صغيرة تحوي قطعًا من الشوكولاتة على شكل أرنب، فوضعت الأرانب الصغيرة أمامها على المائدة؛ حيث أكلت نصفها، وردَّت النصف الآخر إلى العبوة. لم تتصل والدتها، فتركت البيت قرابة الواحدة ظهرًا. أرادت أن تزور ذلك المطعم الذي يبعد عن مكتب "توماس"، كي تتناول الحساء. صحيح أنها لا تعرف المنطقة، ولكنها تعرف محطة باص تحمل اسم الشارع الذي وجدته في الفواتير.. "شارع كوندرا".

لم تتناول الحساء، ولم تجد المطعم من الأساس، فقد أخطأت في اسمه، ولكنها كانت في الحي الصحيح، ولا بد أنه الحي الذي تسكنه الفتاة، حيث المباني القديمة، والحواري المُتعرِّجة.

وقفت في شارع مليء بالأشجار ذات الأوراق الكثيفة والفاتحة، وهناك أخذت تتخيَّل الفتاة. وفي تلك اللحظة رأت فتاة شابَّة ترتدي فستانًا أحمرَ، وتقود درَّاجتها، دون أن تلتفت إليها.

لا تُظهِر الفتاة استياءها، عندما يلتقط "توماس" صورًا لها بتليفونها، فعلى الرغم من أنه لا يكتفي أبدًا من تصويرها، فإنه لا يستخدم تليفونه الخاص، ويتحجَّج قائلًا:

- هذه الصور لكِ وحدكِ. ستسعدين بالنظر إليها يومًا ما.

فتقول:

- دعك من هذه الحجج الفارغة. أعلم جيدًا أنك تحرص على إخلاء تليفونك من أدلَّة الإدانة.

تقول الفتاة:

- دائمًا ما أُرسِل له جميع صوري التي يلتقطها بتليفوني، كما أنه يرفض النظر إلى صوره التي التقطها، ولكنني أرسلها له أيضًا على أي حال.. إن احتضنته واختلست صورة لنا معًا، يطلب منِّي على الفور أن أحذفها، ويتحجَّج قائلًا إننا يجب ألا نلتقط سوى صوري أنا وحدي، لأنني الجمال والشباب.. ليتني أعلم، ماذا يفعل بتلك الصور.. أما أنا، فأحتفظ بها كلها.

راقبت "أنَّا" الفتاة الشابَّة وقد وصلت إلى نهاية الشارع، ثم انعطفت يسارًا. مدَّت ذراعها وكأنها تُلوِّح لشخصٍ ما، ولكنها كانت تُشير إلى الاتجاه الذي ستنعطف إليه، حتى وإن خلا الشارع من السيارات. فلم يوجد سوى "أنَّا"، التي تخيَّلت أنها تقف في المكان نفسه الذي يقف فيه "توماس" وهو يتأمل الفتاة. ها هي أخيرًا قد وصلت إلى محل إقامتها الذي ذكَّرها بأجواء العصور القديمة؛ فالمباني صغيرة، ولا تتجاوز ثلاثة طوابق، والبوَّابات خشبية ومطليَّة باللون الأخضر، وتتوارى خلفها حدائق خفيَّة.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

68

تنفتح البوَّابات في فترة ما قبل الظهيرة، فالواجهات المُغلقة التي نعبر بمُحاذاتها تتحوَّل إلى منافذ للدخول. وجدت "أنَّا" نفسها في الفناء الداخلي لأحد المباني، حيث سحبها تيار الهواء إلى الداخل. أخذت تخطو خطوات حذرة، ولكن لم يُولها أحدٌ أي اهتمام. في فترة ما قبل الظهيرة، تنفتح بوَّابات المباني، لتنظيفها وترتيبها، أو ربما لتهويتها. وفي قلب الفناء، حيث مركز تيار الهواء، ظلَّت "أنَّا" واقفة. تروقها الفناءات المرصوفة بالأحجار، خاصة تلك التي يوجد بها حُجرات إضافية، يخرج منها بين الحين والآخر من يرغب في التدخين. وفي داخل المبنى كانت السلالم مصنوعة بمزيج من البلاط مع الأحجار الخشنة والناعمة. ولم تكُن كل البيوت مُغلقة بالترباس.

كلما وجدت عاملًا أو خادمة، تسألهم:

- ألا يوجد أحد هنا؟

لا أحد يلاحظها، فتُلوِّح بيدها قليلًا، ثم تمضي قُدُمًا؛ لعلَّهم يتجاهلونها عمدًا. سمعت بابًا ينغلق بقوة، ثم خطوات عاجلة، إلى أن ظهر أمامها ذلك الشاب المُسرِع. نظرت إلى عينيه الخاملتين، وشمَّت رائحة عطره، أو كريم الحلاقة، أو مُثبِّت الشعر الذي مشَّط به شعره إلى الخلف، كما سمعت صوت حذائه الجلد، ووجدت التليفون في يده اليُمنى. تأكدت عندما مرَّ بجوارها أنها غير مرئية. لا يهم إن كانت الأبواب مُغلقة بالترباس أم لا، فلن تشعر عند فتحها بتلك المقاومة الشديدة التي تشعر بها عندما تقف الفتاة مع القطة خلف باب منزلها. وجدت جميع البيوت خاوية، وتسلَّلت إليها جميعًا، حيث ألقت نظرة على الثلاجات، ولاحظت أن أجهزة الفريزر مُمتلئة عن آخرها. لاحظت أيضًا أن من يمتلك حجرات لتخزين الأطعمة، يصنع المربى بنفسه في المنزل. كانت أواني الإفطار إما على موائد الطعام، أو بجوار أحواض المطبخ.

على الرغم من عشقها للتوست المحمَّص مع الزبدة والعسل، فإنها لم تشتهِ الطعام في أي من البيوت التي زارتها، أو ربما لا يمكنها تناول الطعام من الأساس. وجدت جميع الدواليب والأدراج مفتوحة، ولا تحوي سوى الملابس والجوارب والكابلات. كما وجدت في المطابخ عبوات الشاي والقهوة والشوفان والفيتامينات. أما عن شاشات التلفزيون السوداء، فقد انعكست عليها الحجرات، حتى بدت وكأنها غُرَفٌ مُظلمة. وعلى أبواب الثلاجات كانت توجد بعض الأشكال المغناطيسية، أو قوائم بالمُشتريات أو دعوات للجنازات والأفراح، أو بطاقات بريدية مع بعض الأقوال المأثورة، مثل: "هكذا هي الحياة".

وفي أحد المنازل، سمعت رنين التليفون؛ رنَّات طويلة وعلى وتيرة واحدة. وفي منزل آخر، سمعت صوت البيانو، ووجدت الكرسي في مستوى طفل صغير، وعلى لوح النوتة الموسيقية وجدت مقطوعة "من أجل إليزه" لـ"بيتهوفن". لاحظت أن حجرات الأطفال تقع في الجزء الخلفي من البيوت، وأنها أكثر ظُلمة، بسبب إسدال الستائر. أما عن حجرات النوم الرئيسية، فلم تخطُ بداخلها، ولكنها كانت ترى الأسِرَّة من خلال الأبواب المفتوحة. لم تجد سوى الأسِرَّة العريضة، التي تتَّسع لاثنين، ولكن بعضها كان عليه غطاءٌ واحدٌ فقط، تمامًا مثل سريرها. وفي أحد البيوت، وجدت سريرين صغيرين، على بُعد مترين، تفصل بينهما مائدة جانبية على الطراز الألماني القديم، وعليها

مصباح صغير برأس من القماش. وبشكل عام، لم تجد تلك المنضدات الجانبية في غرف النوم إلا قليلًا، وإن كان لا يوجد سوى غطاء واحد، فتجده عريضًا بدرجة تسمح باحتواء أكثر من ثلاثة أشخاص.

وأخيرًا، جلست على أريكة عريضة، وتساءلت عن أماكن القطط والكلاب، وعن الأطفال، الذين يعزفون مقطوعة "من أجل إليزه" مساءً، ويعيدون نغماتها الأولى مرارًا وتكرارًا، لأنها تُشكِّل لحنًا جميلًا.

69

حتى وقتٍ قريبٍ، أو منذ زمنٍ بعيد، كان "توماس" و"أنَّا" يتركان لبعضهما رسائل على مائدة المطبخ. أحيانًا يكتبان سطرين على الناحية الخلفية لأي مظروف، وأحيانًا يكتبان على ورقة كبيرة، وبعد أن تمتلئ عن آخرها، وتتكدَّس بالكلمات، يضعان من فوقها كوبًا فارغًا، أو عبوة السكر، التي لم تعد تجدها "أنَّا".

تبحث "أنَّا" عن منزل صغير تحت سقف مُنحدر، بسرير صغير، ولكن يتَّسع لاثنين لا يستيقظان في الوقت نفسه. قرابة نهاية اليوم، يستلقيان عليه معًا، ليحكي من استيقظ أولًا، عما فعل بينما كان الآخر نائمًا. يظهر أمام النافذة جزءٌ من السماء، ولكن أوقات اليوم لا تتحدد وفقًا لدرجة النور أو الظلمة التي تتسلَّل إلى الداخل. وبجوار المدخل على الحائط، توجد لوحة من الفلين، مشبوكٌ عليها دبابيس برؤوس مُسطَّحة ومُلوَّنة، تتدلَّى منها بطاقات بريدية، وأوراق مُدوَّن عليها بعض العناوين وأرقام التليفونات، بالإضافة إلى بعض الصور، وتذاكر السينما، وخريطة لمركز المدينة.

صعدت على سلالم خالية، وشعرت قدماها بمُلامسة أحجار باردة، دون أن تُصدِر صوتًا. وفور دخولها أحد المنازل، علمت أنها وجدت ما تبحث عنه. فالمدخل الصغير يطلُّ مباشرة على حجرة النوم، وهي الحجرة الوحيدة، حيث توجد بها أيضًا مائدة وثلاثة كراسي. أما السرير، فهو ملاصقٌ للحائط، أسفل السقف المائل، ولكنه لا يتَّسع لاثنين. أرادت أن تستخدم المرحاض، ووجدت باب الحمَّام على اليمين. كانت مساحته صغيرة، والحوض بالكاد يتَّسِع ليديْن، والنافذة صغيرة في مستوى الرأس، ويتدلَّى منها حبل السيفون. جلست على المرحاض، واندهشت لأنها تبوَّلت لفترة طويلة، جفَّفت نفسها ونهضت، ثم رفعت ملابسها الداخلية والبنطلون. وقبل أن تُشغِّل السيفون، لاحظت بعض قطرات الدم داخل المرحاض. استدارت إلى الحوض، وتطلَّعت إلى نفسها أمام المرآة، فوجدت رأسها أصلع. وضعت أربع أصابع داخل فمها؛ السبَّابة، والوُسطى، والبنصر، والخنصر، وأخذت تعضُّ على ظفر الخنصر أكثر فأكثر، حتى استيقظت أخيرًا.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

70

مدَّت "أنَّا" ذراعيها بجوار جسدها، حيث استلقت على فراشها وكأنها مُثبَّتة عليه بمسامير. جال بخاطرها أنها نسِيَت تفريغ جيوب "توماس"، وهو ما اعتادت أن تفعله ليلًا، ولكنها لن تقدر على النهوض من السرير، فقد غلبها النُّعاس، لذا، ستؤجِّل تلك الحسابات إلى اليوم التالي.

تراكمت الفواتير في جيوب الجاكتات المختلفة التي أخذها "توماس" من خزانة الملابس في الأسابيع الماضية. دخلت حجرتها، حيث فصلت الأوراق التي تحوي مواعيد أو ملاحظات قديمة، عن الأوراق الهامَّة، والفواتير، التي ستعيد فحصها بعد ذلك. وجدت نفسها لأول مرَّة تُنسِّق الأوراق والفواتير في وضح النهار، وعلى سريرها. أمسكت بفاتورة مكتوبة بخط اليد، ولكنها لم تفهم سوى التاريخ، الذي وافق إجازة عيد الفصح. ثم وقعت عيناها على اسم الأوتيل والمطعم، حيث كان مطبوعًا في أول الفاتورة. تعرف "أنَّا" هذا المكان جيدًا، ولكنها احتاجت إلى بضع لحظات كي تتذكَّر العنوان.

ذهبت إلى هناك، وأخذت تتأمَّل الميدان أمامها؛ وجدت بعض السُيَّاح يتناولون الآيس كريم. بدا وكأنهم في عجالة، فقد تسارعت خطواتهم دون توقُّف، وكأنهم يريدون أن يصلوا إلى البحيرة، فهي على مقربة من المكان، ففي غضون نصف ساعة يمكن أن يصلوا إلى نهاية الوادي.

دخلت الأوتيل الذي حملت فاتورته في يدها.

وفي تلك المنطقة، حيث بيت البحيرة، اجتاحها الحنين إلى الماضي. ففي هذا المكان تشعر وكأنها في عالمها الخاص.

قالت الفتاة:

- لقد تغيَّر شيء ما منذ أن أنهَيْت كتابة السيناريو، أشعر وكأن حالي قد تغيَّر. لعل فرق السِّنِّ يُبعد بيننا المسافات.

نظرت صديقتها إلى زجاجة البيرة أمامها، ووضعت أصابعها بجوار بعضها على المائدة. سألتها:

- ما رأيه في السيناريو؟

قالت الفتاة:

- يجده رائعًا.. هكذا وصفه.

رفعت صديقتها نظرها إليها، وقالت:

- إذًا، فلا بد أن يساعدك حتى يخرج إلى النور.

- نعم، هكذا سيفعل.

- حتى وإن تركتِهِ، وانتهت قصَّتُكُما؟

- نعم.

- هل ستُهدِّدينه بفضح العلاقة؟

- كلَّا، فهو حقًّا عزيزٌ عليَّ.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

71

أغلقت "أنَّا" دفتر الملاحظات، ووضعته في الدُّرج، ثم أخذت جميع الأوراق من سريرها، حتى الفواتير، وذهبت إلى المطبخ، حيث ألقت بها جميعًا في القمامة. كانت حقيبة الظهر تنتظرها بجوار الباب، فأخذتها، وارتدت حذاءً دون رباط، ثم تركت الباب ينغلق خلفها. ظلَّت تمشي بلا توقُّف على شارع مُمتد. كانت ساقاها تسيران بسرعة وعفوية، تمامًا مثلما كانت يداها تعزفان من قبل. لم تتباطأ عند المرتفَع، وظلَّت أنفاسها مُنتظمة، وعميقة، ومسموعة. مرَّت بجوار بُرجٍ عتيق؛ أحد أهم آثار الحرب، بينما حافظت على إيقاعها الحازم: خطوتان كبيرتان، فخطوتان صغيرتان. تخطَّت ثلاثة أحياء إلى أن دخلت أحد البارات. وفجأة، شعرت بالغثيان، وكأنها ستتقيَّأ حالما تفتح فمها. طلبت مشروبًا دون أن تتكلَّم، حيث اكتفت بالإشارة إلى الزجاجة خلف البار. وجدت جريدة بجوارها، تصفَّحتها قليلًا، ثم وضعتها جانبًا، ودفعت الحساب كي تستكمل السير. ومع حلول الغروب، كانت تقف فوق مُرتَفَع، حيث كان منظر المدينة أشبه بباريس. سمعت صفير إحدى عربات الإنقاذ، وبينما نزلت من السلالم، شعرت بعضلات ساقيها ترتعش بقوة، وازداد إحساسها بالألم كلما اقتربت من البيت. وبعد أن انتقل الألم من معدتها إلى رأسها، أخذت تُسرع أكثر، حتى وصلت إلى البيت، وجلست على الأريكة مباشرةً دون أن تُشعل النور. كانت أبسط حركة تزيد من إحساسها بالألم، احتاجت إلى وقتٍ طويل كي تُحرِّك ذراعها قليلًا إلى الأمام. وبعد فترة، انفتح باب البيت، واشتعلت الإضاءة في المدخل. رآها في طريقه إلى حجرته، فدخل إلى حجرة المعيشة، وأشعل النور. قالت له:

- كلَّا، النور فوق عينيَّ مباشرةً.

رفعت يدها قليلًا، ثم تركتها تسقط.

أطفأ النور، وسألها:

- هل تناولتِ مُسكِّنات للألم؟

سمعته يتحرَّك في الحمَّام، ثم عاد إليها، حاملًا كوبًا من الماء. تناولت الدواء، ثم سألته:

- أين وجدت هذه الأقراص؟

لاحظت أنها لم تنطق الحروف بوضوح. أسقطت رأسها، ورفعت يديها بجوارها. ساعدها نسيج الأريكة الثقيل على تجاوز الإحساس بالألم بعض الشيء. قال لها:

- في الصندوق.

فتَّحت عينيها سريعًا، بينما جلس هو بجوارها على الكرسي مُسندًا ذراعيه. سمعته يهمس بصوت خافت:

- مضى وقتٌ طويلٌ منذ ذلك الحين!

قالها لنفسه.

انتظمت أنفاسها بعد أن بدأ مفعول المُسكِّنات. سمعت معدته تُصدر أصواتًا أشبه بهدير الحمام.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

72

لطالما حرصا على الذهاب إلى المسرح الصخري يوم وصولهما. فتلك النُّزهة تستغرق نصف اليوم.

في بيت البحيرة، لا تستمع "أنَّا" إلى الموسيقى، ولا تعزف أيضًا، فلا يوجد ستيريو، ولا بيانو. وإن أراد "توماس" أن يُجري أي مُكالمة، فعليه أن يمشي بضع مسافات خارج البيت، حيث تبدو البحيرة كأنها وعاء بسبب سلاسل الجبال التي تحيط بها.

كان "توماس" يذهب إلى القرية مرَّتين في اليوم، كي يتسوَّق في السوبرماركت الصغير، حيث يشتري كل يوم خبزًا طازجًا، مع الجبنة والبيض المحلِّي. وفي المساء، كانت "أنَّا" تجلس في البلكون، بينما يُعِّد "توماس" المائدة، حيث يضع الخبز في سلَّة صغيرة، والجبنة والسجق في الصحون، دون أن ينسى النبيذ، أو البيرة. ولأن قمم الجبال بدت قريبة منهما، كانا يشعران بأنهما على بُعد مسافة كبيرة عن الأرض، بينما يتأمَّلان الطيور الكبيرة والسناجب التي تنتشر على أغصان شجر الزَّان.

دائمًا ما يقول "توماس":

- كل شيء هنا مذاقه أحلى، لا نجد هذا الخبز أبدًا في المدينة.

كان يأخذ مصباحًا صغيرًا ويضعه بين الصحون، لأنهما دائمًا ما ينسيان الشموع، فعلى الرغم من زُرقة السماء، تصعب رؤية بعضهما بعضًا. ومع أول نداء للبوم، يُعيد "توماس" الصحون إلى المطبخ، كي يتوجَّها معًا إلى الكنيسة، فيتمشَّيان بين التلال في الظلام، حيث يخلو الطريق من المصابيح. كانت الظُّلمة تنتشر على الرغم من زُرقة السماء، ولكنه كان لونًا أزرقَ داكنًا لم تَرَ "أنَّا" مثله.

أما في الليل، فكانت تستلقي على السرير المُغطَّى بالملاءة البيضاء. دائمًا ما كانت تُصمِّم على فتح جزء من النافذة، كي تستشعر سكون المنطقة في كل لحظة. أحيانًا، كان "توماس" ينضم إليها بعد مرور بعض الوقت، ليروح في النوم بين أحضانها، فتنهض هي بعد ذلك، لتفتح النافذة على مصراعيها، وتشعر بالدفء تحت الغطاء، بعدما تعود إلى السرير مرَّة أخرى. ومع حلول الليلة الثانية تتلاشى كل الألحان من داخلها، فالإيقاع، الذي يدُقُّ بلا انقطاع داخل جسدها - أيًّا كان مصدره؛ الدم، أو القلب، أو أي شيء آخر - يتلاشى تمامًا مع انقضاء الليلة الثانية في بيت البحيرة.

سمعت "توماس" وهو يمسح بيده على فمه وذقنه، أغمضت عينيها، وقالت:

- أُريد أن أذهب إلى بيت البحيرة.

عرفت أنه انحنى إلى الأمام، لأنها سمعت صوت اتِّكائه على المسند الخشبي، وحركة نسيج ملابسه، وبَحَّة حلقه. قال لها:

- لقد رُحتِ في النوم.

ثم نهض قائلًا:

- سأحضر لكِ الغطاء.

اتَّكأت على ذراعيها، وقالت:

- كلا، إذا نمت هنا، لن أقدر على الحركة غدًا.
زحزحت نفسها إلى حافة الأريكة، ثم نهضت، ووقفت أمامه، قائلةً:
- لا أعلم كيف تتحمَّل النوم على الأريكة كل يوم.
صدر صوتٌ من عتبة الباب. قال "توماس":
- حسنًا إذًا، فلنذهب إلى بيت البحيرة في الصيف.
قالت "أنَّا":
- قبل ذلك، سأكون هناك.

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

تمت بحمد الله وتوفيقه

∞ ∞ ∞ ∞ ∞

..


متميزون
للكتب النصية
E-Book

Group Link – لينك الانضمام الى الجروب

Link – لينك القنـــــاة

الفهرس..